مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

صالحة عبيد

دائرة التوابل

المتوسط

دائرة التوابل

مكتبة
t.me/soramnqraa

حقوق النسخ © 2022 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2022 صالحة عبيد

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Daeret Al-Tawabel *by* "Salha Obeaid"
© 2022 **Almutawassit Books** / © 2022 by Salha Obeaid

المؤلفة: صالحة عبيد / عنوان الكتاب: دائرة التوابل
الطبعة الأولى: 2022
لوحة الغلاف للفنان الإماراتي ناصر نصر الله / التصميم والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-72-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

صالحة عبيد

دائرة التوابل

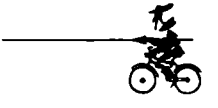

المتوسط

تتفتَّحُ في أَصابِعِك
جُرُوحٌ للغَيب
ماذا في وجهِ الصورةِ، يا عبدَ الله؟
ماذا في الدَّاخل
في الوقتِ الفاصل
ما بينَ الإبصار
وبينَ القَول؟
ماذا في الموت
يا عبدَ الله إذا
لمَ تتراءَ الأشياءُ؟
ماذا في الشِّعْرِ إذا
انكَفأَ الشُّعراءُ عن النَّظَر؟

مُتْ حتَّى آخرِ موتِك
يا عبدَ الله
فصراخُ النَّخْلِ غريب
وصراخُ الإنسانِ غريبٌ كالإنسان
كلُّ قتيلٍ يحملُ اسمَه

قالَ الرَّاوي
ما زالُ يُحارِبُ ضدَّ هواجِسِه
ما زالَ يُقاتلُ حتَّى لا يُقتَل
ما زالَ وحيداً حتَّى قاعِ الدمعِ ولا يدرِي

نصوصٌ متخيَّلةٌ للخليفة عبدِ الله بن محمَّد المعتزّ بالله ابن المتوكِّل ابن المعتصمِ الرَّشيد العبَّاسيّ

المصدر: كيفَ ترى أعمدةَ القصرِ كأنَّها النَّخيل- سلسلة "كيف ت"

المكوِّنات اللَّازمة للتحرُّر من لعنة:

سكِّينٌ حادٌّ

غرفةٌ بدرجةِ حرارةِ 25 درجةٍ مئوية

طفلٌ رضيعٌ

عبدُ اللهِ بن المُعتزِّ

سامرَّاء - العراق / 247 - 267 هـ / 861 - 881 م

سقط الرأس

أربعون يوماً كانت كافية كي يدخلَ الصبيُّ معترك الحياة. وكي يفهم فكرة الدم كان كافياً أن يُفصَل رأسٌ عن جسد أمام عينَيْه.

قُتِل جدُّه "المتوكِّل"، واقتيد والده "المعتزّ" إلى السجن، هاجت الدنيا وماجت، أدرك الصغير أنّ الدمَ يتبعه العويل، وأن العويلَ يعقبه الغضب، الوجه الحيوي لفكرة الثأر المتَّقد، كانت الحرارة حوله تطاول الأجساد قبل الأشياء، ويحاول فيما يحاول أن ينأى عن الحرارة، كان هارباً دائماً، مُنزوياً، متوجِّساً من النار التي تنهش الدواخل، يفرُّ أينما فرَّ إلى جدَّته "قبيحة" الرُّوميَّة، تقرأ له ما تحفظ من الحكايات الغريبة، وتُنشد له بصوتها المتشرِّخ القصائد التي كانت كلّ ما تبقَّى لها من إرثها القديم في بلادها البعيدة، ولكنها كانت تنقلها له بعربية فصيحة، لكنها عربيةٌ مختلفة، حيثُ للقصيدة شكل آخر، جعلها تتسرَّب إلى رأسه على شكل فكرة جديدة.

ثمَّ وصلت النار إلى والده، تمكَّنت منه بعد أن أُخرِجَ من سجنه ليقتل عمّه "المستعين بالله" مُستولياً على الخلافة، كان قد رغب لو ركض إليه فاحتضنَهُ أوَّل ما خرج، لكنه رآه مُلطَّخاً بالدم واللهيب،

فخاف وابتعد، عادوا جميعاً إلى القصر، وبقيَ هو يفرُّ من الأجنحة الكبيرة إلى غرفة صغيرة منزوية، حيث "نَشْر" الجارية، تكشفُ له عن الجسد غِلَالَتَهُ، وتُوقِد ناراً أخرى، هي نار الشهوة، وهي بعكس النار الأخرى، لا يُخمدها الدم، بل ماءٌ يُراقُ من الجسد، كانت "نَشْر" تغنِّي أيضاً، وكان مفتوناً بصوتها، عندما يحمل القصيدة ليكتشفَ بُعْدها غير المتناهي، هناك بزغت فكرته الثالثة، بين الصوت والقصيدة.

كلُّ بديعٍ حَسَن، ولمَّا استوى له المقام بين القصيدة والصوت أضاءت الفكرة الرابعة، توهَّجت، وهو يُقاد انقياد المُسرنَم إلى حيث وجَّهتْهُ رائحة الغلام "نشوان" البهيّ الطلعة في مجالس النهار، والبديع الصنعة في فراش الليل، وكلَّما احتكَّ الجسدان الغَضَّان، واختلط الشراب باللُّعاب والعَرَق والماء أبصر ابن المعتزِّ الثلاثة معاً، القصيدة والصوت والحُبّ، واختار الطريق، له مجلسه الذي يحتفي بالثلاثة، وينبذ النار في القصر، بقدر ما نبذه أهل المُلك .. هجوه وهجاهم، وثار على النار في كلِّ شيء حتَّى في اللغة، وكلُّ بديعٍ حَسَن، كان يقضي الليالي الطوال، يغيِّر من شكل القصيدة لتستويَ على "علم البديع"، انتصر له الناس، توَّجَهُ أهل الشارع وهم يحفظون له ما يذيعه من شِعْر ومقال، ويعيدون تداوله، فطابت له هذه المكانة.

ولكنْ، ليس للقصيدة أن تُخمِدَ النار، ليس لها أن تحفظ العروش من الثأر والغدر، وها هو ذا، يسير منساقاً نحو الفكرة الأولى التي نبذها، رائحة الدم في الذاكرة، يميِّز هذه الرائحة؛ لأنها هي نفسها التي تفصَّدت مِن مسامَّات جدِّه يوم سَقَطَ الرأس، لكنها الآن تنزُّ عن هشيم جسد والده "المعتزّ"، وهو يُلقَى به من شاهق القصر، وقف

بين جمع من الناس، ورأى وحده كتلة النار وهي تخرج من قلب والده المهترئ قاصدةً إيَّاه، فما كان منه إلَّا أن أخذ يركض متجنِّباً إيَّاها، يريد أن ينجو .. يجب أن ينجوَ من النار، ولو كلَّفه الأمر ما كلَّفه، عاد إلى "قبيحة" التي كانت كأنها عرفت كلَّ شيء قبل وقوعه بأمد، وفرَّا معاً، من النار والموت والثأر، إلى مكَّة.

شيريهان

دبي، العاشرة مساءً

يجب عليها أن تواجهه.

مؤكَّد أن هناك غضباً هادراً في مكان ما، لعلَّه أكثر ممَّا تحتمله هذه الروح، تظنُّ أنه كان غضباً دائماً، مراوِغاً ومتحوِّلاً، يحدث أن يلتبس باليأس أحياناً أو بالحزن أحياناً أُخرى، حتَّى ذلك الفرح المباغِت قد يكون غضباً أيضاً، شرساً ومهادناً، قلقاً وساكناً، أزرق وفاقعاً، حارقاً وفوَّاراً، ولا شيء آخر.

يُحتمَل أن يكون ذلك الحُبُّ المُفترَض حالة من حالات الغضب أيضاً. قد تكون تحبُّه لأنها ساخطة، لا لذاته، تتلمَّس بشفتَيْها آثار ذلك الغضب الهادر الذي طالما حاولت السيطرة عليه، أن تُشتِّت صراخه. عندما تصرخ به، عندما يصرخان، كانت تصرخ في وجه الغضب من خلاله، ذلك الغضب الذي ظنَّتْهُ، في مواضع تشوُّشها الكثيرة، حُبَّاً. أو لعلَّه الرغبة العارمة بألَّا تكون شيئاً، لا شيء .. أن تكون العدم نفسَه، لكنْ، كيف لها أن تكون ما لا تفهمه؟

وفي سبيلها إلى الفهم، تتذكَّر دائماً أنها كانت تَحفِر بيدَيْها العاريَتَيْن الرمل المحيط بسور المَقْبَرَة، تريد لو تستطيع أن تُجاوِر الآخرين الذين سبقوها إلى العدم، تَحفِر وتتأمَّل ذرَّات الرمل، في حين يلعب الأطفال الذين في مثل عُمُرها في الساحة الأبعد، مُتجنِّبين النظر إلى ما يجهلونه

وما يخافونه، وحده اقترب منها ذلك اليوم، قبل سنوات، وسألها: ماذا تفعلين، أيَّتها المجنونة؟ تتذكَّر بوضوح غضبها المتصاعد حينها، الشراسة الحيوانية التي قفزت بها نحوه وهي تلصق يدها المعفَّرة بالتراب على وجهه. كانت فورةً لم تزل منذ حينها تربط بينها وبينه بمصير خفيٍّ، شعرت بأنها قد لمست ذلك الوجه الذي كان يثير سخطها سابقاً، تراه كثيراً منذ انتقالهم إلى الحَيِّ، يحاول أن يجد لنفسه مكاناً بين الصِّبيَة والفتيات، هو القادم الجديد، المنبوذ! باغتَها ذلك الشعور بالأُلفة على أثر اللمسة، فتجمَّدت قليلاً عندما ظهر أن حركتها نحوه لم تُثر خوفه أو استفزازه، وكأنّها حركة معتادة، أو كأنّها فعلَت ذلك سابقاً، حفَّزتْها بلاهته إلى أن تتجاوب مع حديثه:

كان يوجد بحرٌ هنا، هل تعرفين ذلك؟

مستحيل.

لكي يعرف العائدون لمنطقة "السيفة" ما فاتهم من حيوات وهم هناك في البعيد.

مَنْ قال ذلك؟

جدَّتي.

أنتَ لا تعرف شيئاً، لقد وصلتُم إلى الحَيِّ للتوِّ.

جدَّتي تعرف كلَّ شيء.

حفَّزت إجابته حَنَقَهَا من جديد، دفَعَتْهُ وهربَتْ، وقد عاهدتْ نفسها للمرَّة الأولى، وهي ابنة العاشرة، بأنها لن تعود لتشاهد هذا

الوجه المستفزَّ مرَّة أخرى، عهدٌ خرقتْهُ مراراً، فقد بقي وجهه متوازياً مع سيرة حياتها، وجهٌ ثقيل وأبله ومهادِن، لكنها لا تعرف ما الذي جعلها تقبل ذلك التوازي الذي حوَّلتْهُ الأيَّام إلى تقاطع! لعلَّ لا أحد للمنبوذين سوى بعضهم. كانت تكبر بمحاذاة سور المَقْبَرَة، دون أن يُسمَح لها بالدخول، وهي تتشهَّى المكان بالداخل، اعتقدت أن ذلك سبيلها الوحيد إلى الظفر بالسرِّ، إلى أن تفهم الغضب المستعِر، ليمكنها وقتَها من تفكيك العدم، ومن أن تصل إليه أو يصل إليها.

في اليوم الذي أتاها نبأ وفاة عمِّها، على أثر حادثة سير مروّعة، بعيداً من موطنه، راقبَت الاضطراب الذي حلَّ ببيت العائلة الكبيرة، كانوا جميعاً في بيت الجدَّة كعادتهم الأسبوعية، تكره ذلك اليوم الذي يُبعدونها فيه عن ساعتها قرب المَقْبَرَة، حاولتْ كثيراً أن تستيقظ مبكِّرةً، لتستطيع أن تقضيَ ساعتها الأثيرة تلك. لكن والدها ظلَّ يستيقظ دائماً قبلَها، تشعر بأنه لا ينام، لعلَّ الكبار لا ينامون، على رغم أنّ والدتها تكون نائمة طَوالَ الوقت، نائمة وبعيدة، قد يكون الأمر مرتبطاً بالرجال، لكن أحمد شقيقها البِكْر كان نادراً ما يستيقظ قبلَها، وهو كبير، كبير كوالدها، لكلَيْهما شارب وخشونة في اليد، وطول فارع وأنف طويل ودقيق جداً حتَّى يبدو أنه لا يكاد يصلح حتَّى للشمِّ، في حين أن لهما عينَيْن واسعَتَيْن وكبيرَتَيْن، يخيَّل إلى مَنْ يطيل التحديق أنهما قادرتان على ابتلاعه بالكامل، تتشابهان إلى حَدٍّ كبير، لولا أن والدها عند حَدٍّ معيَّن راح يبدو أقصر إلى جوار أحمد، لأنّ أحمد الذي أخذ يزداد طولاً تجاوزه وقارب شقيقه، عمّها راشد، كما كانت الجدَّة تقول: أحمد شبيه عمِّه، الذي غادرهم تلك الجُمُعة.

كانت تجلس يوم وفاة عمِّها جوار بَوَّابة البيت الكبيرة، بعيدة عن أقرانها من العائلة كعادتها، تكره اختلاط روائح أجسادهم برائحة اللعب، يُشعِرُها الأمر بالتقزُّز، حساسيَّتها تجاه الروائح بدأت مبكِّرةً، تميِّزهم بالروائح، وتعرف الدالف من رائحته أيضاً، عالم كثيف يُشعِرها بالاختناق، تودُّ أحياناً لو تفقد حاسَّة الشمِّ، لتستطيع التعاطي مع العالم بشكل مجرَّد عن انطباعات الرائحة، كانت تكره رائحة البحر، رائحة اليود الطافحة منه، وتكره رائحة الأرض بعد المطر، حساسيَّتها تجعلها لا تشمُّ تلك الروائح بلطف وانتعاش كما يفعل الآخرون، ظلَّت تشعر بالروائح تتسلَّل إلى مسامَّات جِلْدها، تتسرَّب إلى داخل الجسد من أعلاه إلى أدناه مكثِّفةً من شعورها الدائم بثقل الجسد ومعيدةً إليها الفوران الدائم. هي تكره أن تُجالس الكبار أيضاً، والسيِّداتِ بعطورهنَّ القوية والبخور اللاذع، تكره أن تحتضنها جدَّتها وتُطيلَ فيتسلَّل إليها تأثير دهن العود مضاعفاً، شديداً، يُفقِدها اتِّزانها ويصيبها بالصداع، وتكره مجالس الرجال، ثمَّة رائحة حامضة تستشعرها في كلِّ رجل، تجعلها تشعر بأنها على وشك أن تستفرغ كلَّ ما في جوفها، لم يحتضنْها والدها قطُّ منذ أن بدأت تستوعب تلك الرائحة الحامضة، كانت تهرب أو تتهرَّب، وفي أشدِّ الحالات كانت تصرخ بغضب هادر، ذلك الغضب المتدفِّق على أدنى الأشياء بما يفوق وقع الشيء نفسه بمراحل، وشيئاً شيئاً نُسِيَت. كانت تسمع جدَّتها تكرِّر على والدها أن هناك مَسَّاً في هذه البنت، "مب طبيعية"، ولعلَّ شيئاً من بلادة ذهن أُمِّها تسلَّل إليها، تقول ذلك وهي تمعن في أن يصل صوتها إلى والدتها التي كانت تتشاغل بالسلامات على عمَّاتها والأخريات من القريبات قبل أن تصل آخر ما تصل إلى الجدَّة، مخالِفةً بروتوكولاً مؤصَّلاً في العائلة.

"مرتك ما تعرف الأصول".

لم يحدث أن غضبت أُمُّها يوماً، لم ترها تصرخ أو تحتجّ أو تبكي، كانت مستكينة دائماً وساكنة، بابتسامة هادئة وظافرة، منتصرة على الدوام، ومنشغلةً كذلك على الدوام أو نائمة، ربمَّا جعلها النوم تظهر في عُمُر أصغر بكثير من والدها، باستدارة وجهها الخالي من أيَّة خطوط وملامح مميَّزة سوى أنفٍ حادٍّ كأنف والدها، حتَّى الابتسامة الظافرة الدائمة على وجهها كانت دون أيَّة تجاعيد أو خطوط محيطة بها، لأحمد ووالدها ووالدتها إذنْ أنوف لا تتقاطع أبداً مع أنفها الذي بدا كبيراً على غير المعتاد، وهي الوحيدة التي لها هذا الأنف الغريب في عائلة الأنوف الطويلة الدقيقة، حتَّى مع زوجات أعمامها وأزواج عمَّاتها، حتَّى لكأن في الأمر اتِّفاقاً ضمنياً لتشكيل نادٍ لعصبة ذوي الأنوف الدقيقة، وبقيت هي خارجه بطبيعة الحال، نبذٌ آخر كانت تختبره مع نظرة جدَّتها الطويلة التي لطالما قلَّبتْها بينها وبين والدتها، مكرِّرة معها عبارتها الدائمة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

"العِرج دسَّاس!"

تعود دائماً إلى يوم وفاة عمِّها، عندما تفكِّر بشخصية والدتها وابتسامتها الظافرة التي تهشَّمت في ذلك اليوم تستذكر أنها شعرت بأن ذلك النبأ الصاعق هو ما قد يكون سرق من والِدتها الابتسامة، حادث .. حادث .. موت .. راشد، كلمات بقيت تدور في حيِّز الصخب العظيم الذي انبثق على أثر هاتف النبأ، عويل جدَّتها كان في خلفية ذلك الحدث، وابتسامتها هي عندما فكَّرت، أوَّل ما فكَّرت به، أن سور المَقْبَرَة سيفتح أمامها، حيث يذهب الأموات، ستتمكَّن

أخيراً من الولوج إلى الداخل، ستتنشَّق الهواء الحُرَّ، أحد الصغار المرتاعين من الصخب صرخ بها يومَها:

مات عمِّي راشد، لماذا تتبسَّمين، أيَّتها المجنونة؟

وتأكَّد النبذ ..

كانت أيَّام العزاء الثلاثة التي أعقبت الدفن أيَّام انتظارها المتحفِّز، أخفت ابتسامتها تحت قناع من الوجوم والبلادة، لم تسمح بأن يلحظ أحد مرَّة أخرى ذلك الوجه الظافر، لقد عرفت أن الرجال دفنوا عمَّها في المَقْبَرَة، وأن أحمد شقيقها تجاوز ذلك السور للمرَّة الأولى؛ وهذا يعني أنها ستعقبه في التجربة، حيث إن أحمد هو السبَّاق دائماً إلى تجربة الأشياء الأولى بحُكْم سنواته الثماني التي يكبرها بها. ظنَّت أن النسوة سيذهبنَ إلى المَقْبَرَة في اليوم الثالث للعزاء، كطقس ختامي، لوداع الفقيد الذاهب بلا عودة، فكان أن قصدت جدَّتها في ختام اليوم الثالث موجِّهة إليها، للمرَّة الأولى، سؤالاً، هي التي لطالما تجنَّبت أن توجِّه إليها أيَّ حديث أو سؤال:

جدَّتي، متى نذهب إلى المَقْبَرَة لوداع عمِّي؟

أبعِدُوا عنِّي هذه المجنونة.

ذهبت باكية إلى أحمد، الذي كانت تعرف أنه يختبئ في هذا المنزل الكبير كلَّما أراد أن يُدخِّن بعيداً عن عينَي الأب الواسعتَيْن، تقودها نحوه رائحة التبغ واللسعة اللاذعة المنفِّرة، تأمَّلها "أحمد" طويلاً يومَها، وأجابها بهدوء وهو يمُجُّ سيجارته:

النسوة لا يذهبنَ إلى المقابر.

لماذا؟

حرام!

حرام؟ ألن نودِّع عمِّي؟

لا وداع لميّت.

تفاقم غضبها ذلك اليوم، انتظرت عودتهم إلى البيت، كانت العودة إلى البيت تعني لها سور المَقْبَرَة المحرَّمة، تلاشت ابتسامتها المنتصرة كما حدث مع والدتها قبل ثلاثة الأيَّام، أتكون ابتسامة والدتها غابت للسبب نفسه؟ الابتسامة التي لم تظهر من جديد أبداً، على رغم أنها لم تبكِ أو تتصنَّع البكاء كما فعلت زوجات الأعمام الأخريات، هنَّ اللواتي لم يكن يرينَ "راشد" إلَّا لماماً، راشد الغائب الغامض، العائد من سفره فجأة، والذي يظهر في الحكايات كأسطورة، لا حقيقة ملموسة لها إلَّا عند الجدَّة التي لم يتوقَّف عويلها إلَّا عندما بُحَّ صوتها مع ختام اليوم الثالث، كان صوتها الذي غاب بدوره تعبيراً عن الفَقْد، أضحت والدتها بعد ذلك مرافقة لها إلى سور المَقْبَرَة كلّ عصرية، تراقبها وهي تنعزل عن الصغار وتُباشر اللعب بالتراب القريب من السور، وتتصارع مع الصبي المنبوذ قبل أن تدفعه بغضبها المتكرِّر، وتعود مهرولة إلى البيت، تتبَّعها كظلٍّ يمشي بهدوء كسير، ليس لها أن تفهمه، على رغم أنها بقيت محافظة على لامبالاتها الظاهرة، تشعر أحياناً بأنّ أُمَّها غدَت أشدَّ ثقلاً، لعلَّها ورثت عن العمِّ ثقل الجسد الذي تركه وهو يذهب نحو الخفَّة، لكنْ، لماذا اختار أُمَّها من بين

أفراد هذه العائلة الممتدَّة كلّها؟ ألم يكن من الأجدر به أن يصطفي والدها، شقيقه، أن يترك له الفَقْد ممزوجاً بالثقل؟

أمست الآن تستطيع الذهاب إلى المَقْبَرَة يوم الجُمُعة، وتتأخَّران هي وأُمُّها عن الأب وأحمد، اللذَيْن يسبقانهما إلى البيت الكبير، وتقفان بمحاذاة السور قبل أن تعودا إلى سيَّارة أُمِّها.

ماما، لماذا لا ندخل للمَقْبَرَة حتَّى نستطيع أن نودِّع عمِّي "راشد"؟

لا وداع لميّت.

تجيبها كما أجابها "أحمد" أوَّل مرَّة؛ وجعلها هذا تتساءل، مَن مِنهما ابتكر هذه العبارة للمرَّة الأولى، ألَا يشعر الميت بالوحشة دون وداع؟

في الوقت الذي كان تثاقل والدتها يزداد، راحت تراقب الخفَّة التي تَدِبُّ في جسد والدها، كما أنها لاحظت أن أحمد توقَّف أخيراً عن الاستزادة طولاً، لم يعد للجدَّة صوت يصل إلى مسامع والدتها لتُغيظها، لم يعد الأمر مهمَّاً في حقيقة الأمر؛ فوالدتها كانت تدخل من فورها متَّجهةً إلى الجدَّة بعد أن تكونا آخر مَن يصل إلى مجلس السيِّدات، المجلس الذي راح صدرها يضيق برائحته أكثر، كانت رائحة غير قابلة للتفسير، لكنها تشعر كلَّما تنشَّقَتْها بالمرارة، كانت تتركَّز بقوَّة في المنتصف، عند مجلس الجدَّة، وتتوارى كلَّما ابتعدت إلى الباب، لكن هذه الرائحة تصحبها إلى المنزل، بحثت عن مصدرها، ظنَّت أنها التصقت بأنفها، حتَّى اكتشفت أنها تفوح مِن أُمِّها، باحت لشقيقها بأمر هذه الرائحة الثقيلة المربكة، وكعادته، تأمَّلها بهدوء قبل أن يجيب.

لعلَّها رائحة الحزن.

لكنْ، إن كانت هذه رائحة الحزن فعلاً فمِن الطبيعي أن تفوح مِن أبيها بدلاً من والدتها، سألتْهُ وهي تنتظر منه جواباً جازماً، إلَّا أنه تجنَّب الأمر، ووجَّه حديثه حول أمر آخر.

عليكِ أن تنصرفي إلى أمور أهمّ، كما أنكِ كبيرة بعض الشيء على اللعب مع صبيِّ المَقْبَرَة الغريب ذاك.

راعها أنْ تُحرَم من محاولة تفكيك لُغز المَقْبَرَة، شعرت بالغضب من جديد، كان طافحاً وممزوجاً بالخوف هذه المرَّة، لكنه لم يكن موجَّهاً، ويا للغرابة، إلى الواقف أمامها، شعرت بالغضب على "صبيِّ المَقْبَرَة"، هل هذا هو اسمه الآن؟

تَحفِر، وهي تشمُّ المرارة التي نقلها الهواء من جسد أُمِّها التي تقعد قريبة منها تراقب لعبها جوار سور المَقْبَرَة، وصبيّ المَقْبَرَة يقترب منها ليقول:

تقول أُمِّي إني وُلدتُ برأس كبير، وكان الأمر مُربِكاً في بداية الأمر حتَّى إنهم فكَّروا أنني قد أعاني إعاقةً ذهنية.

تجاهلتْهُ، وتجاهلت النظر إلى وجهه الذي سيُشعلها.

لكنني مع الوقت، كلَّما كبرتُ وجدوا أنه يصغر، حتَّى أوشك أن يكون طبيعياً، لا يزال كبيراً بعض الشيء، أليس كذلك؟

رفعت رأسها نحوه، تأمَّلت رأسه، كان كبيراً فعلاً مقارنةً ببقية جسده، لكنْ، ليس إلى درجة منفِّرة، ما كان غريباً هو أن أنفه كان

دقيقاً وصغيراً، كأنه فردٌ من عائلتها، كانا يتشابهان فيما خلا السُّمْرَة الخفيفة والشَّعْر الأسود الداكن والعينَيْن المتوسِّطَتَيْن والاستدارة التي يحمل بها رأسه هذه الملامح، تحسَّست أنفها في آنِها، ودَّت لو تستطيع أن تُقايِضَهُ ويتبادلا، فأنفها متَّسق مع رأسه الكبير قليلاً، وأنفه لا يبتر انسجام أنوف عائلتها.

وجودكَ هنا قد يحرمني اللعب.

ما الذي تعنينه؟

يقول أخي إنني أصبحتُ كبيرة على اللعب مع الفتيان أمثالكَ.

هل تريدين منِّي أن أذهب؟

عادت لتتأمَّل وجهه مع ذلك الغضب الذي عاودَها تجاهه، أرادت أن تقول: "نعم". أرادت منه أن يتلاشى، تمنَّت لو أن لها القدرة على جعله يختفي من الوجود بما يجلبه من استعار، لكنها بدلاً من ذلك وجدت نفسها تقول:

لا، أنا لا أريد ذلك، قد نستطيع أن نجد حلاً، سأُخبر ماما.

في طريق عودتهما إلى البيت باحت لأُمِّها بما قاله لها أحمد، أرادت منها أن تساندها في فكرتها المضادَّة، فهي ليست كبيرة كأحمد و"بابا" و"ماما"، لكنها بُوغتت عندما قالت لها أُمُّها:

لعلَّكِ أصبحت أكبر من اللعب بجوار سور المَقْبَرَة.

شعرت بالخطر، تأمَّلت وجه والدتها الخالي من الملامح وهي تقول لها جملتها السابقة، بوقعها الهادئ المعتاد.

هل ستستمرِّين أنتِ بالذهاب؟

لا أعلم.

لماذا أصبحتْ لكِ ولجدَّتي الرائحة نفسها؟

ماذا تعنين؟

تفوح منكما رائحة تجعلني أشعر بالمرارة، قال أحمد إنها رائحة الحزن، ماما؛ هل أنتِ حزينة؟

صمتت الأُمُّ، شعرت بأنها وبسبب أمر لا تُدركه جعلت والدتها تشعر بالخطر بدورها.

ما هذا الهراء الذي يُعلِّمكِ إيَّاه أحمد؟ ثمَّ مِن أين لكِ بفكرة الرائحة الغبية هذه؟

إذن ما قاله أحمد بشأن صبي المَقْبَرَة هو هراء أيضاً.

قالتْها وهي تبتسم بظفر، مقابل نظرة أُمِّها المندهشة مِن جوابها هذا.

ما اسمه؟

مَنْ؟

صبيّ المَقْبَرَة، ما اسمه؟

ناصر.

حسناً، لعلَّكما انتصرتُما معاً في هذه الجولة.

لم تفهم ما عنَتْهُ أُمُّها، لم تكن تكترث في الحقيقة لناصر بقَدْر ما أرادت أن تتمسَّك بفكرتها البحثية التي كانت تكبر يوماً بعد آخر، على رغم أنها لا تكاد تظفر بأيِّ شيء، شعرت بأن السور يعوقها عن الفهم، تمنَّت لو أنها تستطيع أن تهدمه، لو أن حفرها المتواصل يخلخل جداراً واحداً على الأقلّ، لربمَّا كان وجود هذا "الناصر" يعوقها، لكنها لا تستطيع أن تتخلَّص منه كذلك، لسبب لا تفهمه، لا .. لا ترغب أن تفرد له مساحةً من تفكيرها في هذا الوقت، لكنها على الأقلِّ استراحت، لسنَتَيْنِ إضافيَّتَيْن، حتَّى جاء الأمر من والدها هذه المرَّة، وهو يعود بخفَّته التي تضاعفت حتَّى ما عاد يكاد يلمس أرضية البيت، بسفره الكثير، وانشغالاته الكبرى، يوم انتبه إلى يدَيْها المعفَّرَتَيْن بالتراب وهي عائدة من عند سور المَقْبَرَة مع أُمِّها:

لقد أصبحتِ كبيرة على اللعب في الخارج.

تتذكَّر هذه العبارة ويعاودها الشعور العارم بالغضب الذي رأتْهُ من خلاله أوَّل مرَّة، شعور أتى مِن انعكاس ظلِّه القادم على الجدار قبل أن ينسكب على ظلِّها، هي التي تجلس على حافَّة سريرها في نهاية اليوم، تحاول أن تواجهه بذلك الشعور المربك الذي تحسُّ به، لكنها تفشل ككلِّ مرَّة، تنشغل بحَنَقِها المتصاعد من ظلِّه الذي أثقل على ظلِّها وفتَّته، تماماً كما هو الأمر الموشك على الحدوث بين جسدها وجسده.

عبد العزيز

دبي - ديرة، العشرينيات الميلادية

كان يراقِب من ثقب خفيّ في الغرفة المجاورة، وقت انشغلت النسوة في التراكض بالخِرق المبلَّلة بين الغرفة التي توسَّطها الحدث والمطبخ الصغير الذي وقع مقابلاً إيَّاها تماماً، وكان عَصيَّاً عليه أن يفهم سرَّ هذه الجلبة الكبرى التي دوَّت فجأة .. اشتعل البيت بصراخ أمِّه المتوجِّعة بهلع، قبل أن تهرع عمَّته إلى الخارج عائدة بجارَتَيْن وامرأة غريبة يراها للمرَّة الأولى، يتأمَّل الآن جسدها الضخم وهي تنحني على معظم جسد والدته الضئيل، وتحجب عنه الرؤية، يعرف أن أُمَّه الآن ممدَّدة على الفراش، يحاول أن يفتِّش عن إجابات محتملة لهذه الرَّيكة الطارئة كلِّها، يفكِّر بوالده الغائب، لا يعرف كيف له أن يترجم الآن فكرة هذا الفَقْد، يعرف أن ذلك الرجل يذهب ويعود، لكنه يشعر للمرَّة الأولى بهذا الفراغ المريك في صدره، لعلَّ ذلك الرجل يمنحه الإجابة عن هذه الجلبة.

تصرخ أُمُّه، من جديد ..

يجزع!

لن يكون رأس هذا الطفل أكبر من رأس "عبُّود بو راسين"، أُمّ سرور هي القابِلة الأشدّ مهارة ههنا منذ عقود، ولن يغلبها رأس هذا الطفل.

انشغل عن الثقب بالحديث بين عمَّته وجارتهم، كانت الجارة تحاول أن تهدِّئ من قلق العمَّة، وهي تتحدَّث عن رأس الطفل الأكبر من المعتاد، الطفل المُقبِل كما هو مُفترَض في خاتمة حدث الولادة المُدوِّي، لكنه من موقعه ذاك لم يكن له أن يفهم هذا الأمر، لقد كان فضوله متَّحداً مع ألمه وهو يسمع الصرخات الحادَّة والأنين، ويحاول أن يستدرك هويَّة السيِّدة الضخمة الجديدة وفحوى قلق العمَّة وهذا الحديث عن الرأس، تجرَّأ وأطلَّ برأسه من الغرفة المجاورة، والتقت عيناه بعينَي العمَّة القلقتَيْن، فَسَرَت في جسده رعدة جعلتْهُ يعود إلى الداخل. أدرك أن هذا التقاطع لن يمرَّ بهدوء، سمع وقع الخطوات المقتربة، وأطلَّت العمَّة برأسها، ابتعد بجسده عن الثقب خوفاً من أن تُدرك اكتشافه، فتمنعه من استراق النظر.

- لا تَخَفْ "عزيز"، أُمُّكَ بخير، سيكون لكَ أخٌ جميل تلعب معه.

لم يكن خائفاً، أراد أن يترجم لها ذلك كما هي الفكرة في رأسه، لكنه مرَّة أخرى من موقعه كطفل في السادسة من عُمُره لم يكن له أن يُدرك أحاسيس كهذه أو يفهمها، لقد استبدَّت بفضوله عبارتها الأخيرة، وهَمَّ بأن يسألها: هل هو آتٍ من بطن والدته الذي تكوَّر وتضخَّم؟ إلَّا أن قرعاً قويَّاً على باب بيتهم بَتَرَ المحاولة.

دخان ..

جارتهم الثالثة، "أُمّ جاسم" تدخل في رَبْكة وهي تحمل مبخراً كبيراً، وتهرع قاطعة المساحة المربَّعة الصغيرة في باحة البيت الطيني ناحية غُرفة الحدث، حيث صرخت أُمُّه من جديد، وجد

نفسه يعود ليتموضع عند الثقب، يسمع النسوة يتهامسنَ و"أُمّ جاسم" تكرِّر ما سمعها تقوله دائماً عن الحسد والعين وإبطالهما، لم يستطع أن يميِّز ماهية هذا الدخان الذي تستاء منه "أُمّ سرور" وتُجادِل "أُمّ جاسم" فيه. يسمعهم يتحدَّثون كثيراً عن الخزعبلات والرائحة المزعجة، ولا يفهم فحواها، إذ يدرك الأهالي غالباً في العاجل أو الآجل وبيُسر أكبر أن لهم صغيراً لا يَرَى أو لا يَسمَع أو ليس له أن ينطق، لكنْ، كيف لهم أن يميِّزوا طفلاً لا حاسَّة شَمٍّ لديه؟ ثمَّ كان أن وُلدت "شَمَّا" من عطسة.

ذلك الصراخ كلّه لم يكن مجدياً، جاء الدخان بعطسة الأُمِّ التي دفعت الصغيرة بعدها بقوَّة، تأمَّلها طويلاً، كان لها رأسٌ كبير فعلاً، لكن اللافت هو أن أنفها كان أفطس وممتدَّاً، لا يشبه الأنف الدقيق لوالده وجدِّه، أنفٌ لا يشبه أنفه الطويل أيضاً، الذي أناله الحظوة لدى جدِّه الذي ردَّد طويلاً أنّ له ذلك الأنف الذي يمهَر هذه العائلة، سلالةٌ طويلة من الرجال الذين يغيبون أكثر ممَّا يظهرون، سلالة من رجال الغبار والتوابل.

وكلَّما كبرت "شَمَّا" تزايدت قوَّة ذلك الأنف، لم تستعصِ عليها أيَّة رائحة، كانت تعرف القادم من رائحته، وتعرف أن لكلِّ جسد دمغةً خاصَّة به، هي دمغة الرائحة، ومع الوقت تطوَّر الأمر ليشمل حاسة التذوُّق، كانت تميِّز المكوِّنات بدقَّة وتسمِّيها، تُسمِّي الشيء قبل أن تتعلَّم عنه، حتَّى شكَّلت المعجزةَ الحَيَّة، فتاة الثامنة التي كلَّما جاءت توابل جديدة وضعت شيئاً منها على طرف لسانها، ونطقت المكوِّنات "فلفل" أو "قرفة"، "قَرَنْفُل" و"هيل".

- لقد قالت "بزار" قبل أن تقول أبي، إنه إرث الحرفة ينتقل في الدم.

سمع جدَّه يقول ذلك للرجال بفخر، فأخذتْهُ المفاجأة وهو يتذكَّر امتعاض جدِّه قبل سنوات من شكل أنف "شَمَّا" ورأسها الكبير، كانت المرَّة الأولى التي يسمع فيها ذِكْراً لأنثى في مجلسهم الخشن غالباً .. "شَمَّا" كسرت القاعدة، لم يعد أحدٌ يلتفت إلى أنفه المميَّز، الأنف الذي لم يعد "عزيز" يشعر بجدواه، هو الذي لا يفهم ما تعنيه كلمات كالرائحة والمذاق، إذ كيف له أن يفهم ما لا يُحسُّ به؟ يفكِّر مراراً .. ولا يعرف كيف يشرح ذلك لسلالة التوابل التي أقرَّت بإخفاقه، فكلَّما قدَّمت له مزيجاً يحتار ولا يستطيع إدراك فحواه، كان يحسُّ بأنه مجرَّد بابٍ مصمت، كباب بيتهم الخشبي، الذي يترنَّح بلا إدراكٍ طول اليوم، لا يعرف الذاهب من الآيب، لا تعنيه الوجوه، هامشي دائماً، يتذكَّرونه أوَّل اليوم وهو يُفتَح وآخر اليوم وهو يُغلَق، وفي حَيٍّ متراصٍّ كحَيِّهم، تكاد البيوت كلُّها تكون بيتاً واحداً، أسرة واحدة على ساحل معزول عن العالم، لا بابَ له جدوى الفعلية، وإلَّا لوضعوا باباً ضخماً في مواجهة البحر؛ فهو غادِرُهم الوحيد ومقام التوجُّس الطويل من امتداده المجهول الذي غاب فيه كثرٌ دون أن يرجعوا .. أمَّا "شَمَّا"؛ فكانت كالريح عالية وعاتية وفاعلة دائماً، متَّقدة في مرورها ومرونتها، تلفُّ بالأشياء والأشكال جميعها، فتترك عليها أثرها، لم تكن جميلة بالمعنى المتعارف عليه، ولم يكن لها في الحقيقة وصف محدَّد، كالريح تماماً، لا وجه مميَّز لها، لكنكَ تحسُّ بها دائماً، لا يمكنكَ أن تتجاهلها أبداً، وبين الخور و"سوق الدويات" كان أثر "شَمَّا" يتفاقم،

تحدوها النسوة إلى الساحل كلَّما اقترب الإياب، لتخبرهنَّ بأن روائح العَرَق والملح والغبار والتوابل تشي بأن بينهنَّ وبين الرجال أسابيعَ ثلاثة، ويستبشر بها أهل السوق، حيث الباعة الذين يحلف بعضهم بأن "شَمَّا" الصغيرة قد ذاقت "البزار" هنا، وأقسمت على جودته، أو تحرص جارة من الجارات على أن ترافقها في رحلة البحث عن العشبة المناسبة لعلاج أثر الحُمَّى على فتاة في النفاس، تمرِّر "أنفها" وطرف "لسانها"، وتترك أثرها على التوابل والأعشاب والأحاديث، و"عزيز" يتصاغر.

لكَ رائحة حامضة عزيز.

انتشلتْهُ "شَمَّا" ذات يوم من شروده المعتاد وهو يعيد استذكار مولدها وتضخُّم سيرتها، ومنذ أن أصبح أقرب إلى امرئ منبوذ صار يتسلَّى بالأفكار، فيتخيَّل، وكثيراً ما يتخيَّل، أن له من القوى ما يمكِّنه أن ينفذ إلى رؤوس الآخرين، ليقرأ أفكارهم، ما الذي ستعنيه الرائحة أمام الفكرة عندها؟

ما الذي تعنينه بالرائحة الحامضة؟

لا أعلم، هي رائحة لاذعة، فيها شيء من رائحة أبي، لكنها أقوى، تُشعِرني أحياناً بالخوف منكَ.

هل تخافين منِّي؟

أحياناً.

لماذا؟

بسبب الرائحة، أحياناً، تكون نفَّاذة ومخيفة أشدّ من أحيانٍ أخرى.

وهل تخيف الروائح؟

تأمَّلتْهُ "شَمًّا" مقلِّبةً الفكرة في رأسها، معه حقّ، الروائح لا تتَّفق مع صفة الخوف، لكنها تشعر دائماً بأنها لا تستطيع أن تثق بأيِّ شيء سوى ما تجلبه الرائحة من مشاعر، إنها تحسُّ من خلالها، وقد تتجلَّى الأمور أحياناً لتشعر بأنها ترى مِن خلالها أيضاً، "الكركم" يُورثها شعور الإعياء، وتراه سيِّدةً عجوزاً في نزعها الأخير، تراها، وتستشعر أنفاسها الضئيلة المتبقِّية، وتفكِّر إذا ما رأت والدتها تعدُّ خليط الكركم والتمر المعجون "السّحّ" لعلاج التهابات الكدمات في الساق أو الذراع، بأنهم يمتصُّون خلاصة روح تلك العجوز لكي يعالجوا بها كدماتهم، وكلَّما طافت بها رائحة "الهيل" تتذكَّر الحزن، تعتريها رغبةُ بكاء غامرة، ترى فيما ترى شابَّة خلف النافذة، تحدِّق بحنين وترنَّم بلحن حزين، مع كلمات من لغة مجهولة لا تعرفها، وكلَّما أشعرتْها رائحة الهيل بحزن أشدّ دلّ ذلك على جودته، وأطلعت عائلة التوابل المترقِّبة على ذلك، يُربكها "المسمار"، تواجه من خلاله الخديعة، يتشكَّل في مخيِّلتها كرجلٍ ضئيلٍ يتسلَّل مِن خلفها، ليطعنها بنصل حادٍّ، ترى ذلك الرجل إذا تناثرت حبَّات المسمار أمامها، وأُمُّها تضع قليلاً منه، لكي يمنح المذاق المميَّز للأرز الأبيض، تراه هناك، مُندسّاً بين الحبَّات البيضاء يتحينُ الفرصة ليفتك بها، ترفض أن تأكل من الأرز بالمسمار، وتعدُّ لها والدتها طبقها الخاصَّ دائماً، وهي التي لا ترفض لابنتها طلباً؛ فقد كانتا تشعران بالتميُّز معاً.

اكتسبت والدة "شَمَّا" مكانتها الخاصَّة بعد ولادتها، كانت "عائشة" قبل ذلك على الهامش، زوجة "بخيت" المتحدِّر من أسرة تجَّار التوابل العريقة، المنضمَّة إلى قائمة امتيازاته ومتاعه، "أُمّ العيال"، "الحُرْمَة"، لكنْ، بولادة "شَمَّا" وتنامي مَلَكَتها الخاصَّة، أصبح منزل "عويش مرَت بخيت"، التي انقلَبَت مع الوقت "أُمّ شَمَّا" لا "أُمّ عزيز"، بمثابة محلّ عطارةٍ وطبابة فريد من نوعه، يضمُّ من الأعشاب الطبِّية أجودها، ومن التوابل أفضلها، ومن المستخلصات العطرية أكملها، علاجاً وتذوُّقاً واستطابة، تخصّص ساعاتٍ من اليوم كي تستقبل النسوة في حوش البيت، مع موعد "فوالة" العصرية حتَّى ما بعد صلاة المغرب، بجوارها "شَمَّا"، تميمتها الخاصَّة، حظوتها، وابتسامة القدر القيمة التي عوَّضتها مِن "عزيز"، وإن لم تصرِّح بذلك مباشَرة، تتأمَّل "شَمَّا" والدتها دوماً بامتنان، فلها رائحةٌ باردة تمنحها شعوراً بالأمان الدائم، وبأنّ كلَّ ما حولهما هو الخطر، هو العصف خارج الجزيرة.

لكن تميُّز "شَمَّا" بقي مشروطاً دائماً بقيد المكان، كان "عزيز" دائم الارتحال مع رجال التوابل على رغم ضعفه الظاهر، يأخذونه على أمل أن يعالجه السفر، لعلَّه يستعيد هناك، في سوقٍ من الأسواق البعيدة، مَلَكَته الموروثة، وبقيت "شَمَّا" خلف خطِّ البحر، يعرفها الناس، من البلدات القريبة، ويتناول أولئك الأبعدون حكايات تميِّزها بشيء يشبه الأسطورة الحذرة، فكيف لفتاةٍ أن ترِث ما للرجال، كان الأمر مُحرِجاً في بداية الأمر، وهو حرجٌ تجاوزَتْهُ بمباركة الجَدِّ، الذي كان إذا عاد من الرحلة مع الرجال يأتي بالتوابل والأعشاب، ليضعها أمام

أنفها الناشئ، وكأنه يُعوِّضها عن السَّفَر بالرائحة، لكنْ، هل هي كافية؟ كانت تشعر وقتَها بشعور شفيف، لكنه متَّقد، وعرفت لاحقاً عندما تنشَّقت الزنجبيل للمرَّة الأولى أنه يمثِّل رائحة الغضب، على عكس ما يُفترَض أن تُورثه رائحة الفلفل من حرارة تقرِّب بين الإنسان ومزاجه المشتعل، كانت رائحة الفلفل ومذاقه يُشعرانها بالحسرة، وترى، فيما ترى، صبيةً صغيرة، تركض بسرعة مَهولة، بمحاذاة الساحل، محاوِلة اللحاق بمركبٍ غادر، مركبٍ تدرك حسرة أنها لن تكون على متنه يوماً .. حسرةٌ حارقة وممتدَّة لا تذوب.

للبحر رائحة هائلة، يقال إنها رائحة الملح، لكنها ترى فيه ما هو أبعد من ذلك، إنها رائحة اللغز، لو أن للألغاز رائحة، مزيجٌ من روائح مبتورة، لا تكمل لكَ شيئاً حتَّى تنتقل إلى آخر، هناك رائحة "اليود" القوية، التي لم تدرك هي معناها، لكنها كانت تعني لمَنْ حولها أن بشارة نضج رُطَب النخيل قد اقتربت، فالصيف آتٍ، الصيف الذي يجعل رائحة البحر تدخل كلَّ مكان، وتتسلَّل إلى كلِّ شيء، كانت هذه رائحة تمنحها شعوراً دائماً بالقلق، بأن شيئاً أكبر من نضج الرطب ومجيء الصيف على وشك أن يحدث، تبقى مشغولة أيَّاماً بهذا اللغز، يكون للبحر في مواسم أُخَر رائحة كالسمك، تُزكِم الأنوف، لكنها تُبشِّر بالوفرة الآتية من المسطح الأزرق، لأنها تمثِّل لأهل البلدة الممتدَّة على ساحل "سوق الدويات" في دبي عشرينيات القرن العشرين، أسراباً من السمك المندسَّة تحت الأمواج الضخمة، وعلى عكسهم، كانت "شَمَّا" ترتعب من رائحة السمك القوية؛ لأنها تُذكِّرها بالموت، تتذكَّر أنها فاحت في الحَيِّ عندما ماتت "ناعمة" الغريبة، التي كانت

تسكن وحيدة في بيت معروش على طرف الحَيِّ، الرائحة التي ظنَّها أهل الحَيِّ في البداية بشارةً، قبل أن تنقلب إلى لعنة، كانت "شَمَّا" هي التي دلَّتْهم على مصدرها يوم سارت بأُمِّها إلى بيتها، حيث كان كلُّ شيء مُروِّعاً لطفلة ترى جثَّةً متفسِّخة، وبين كلِّ روائح العطن والقذارة كانت تحتفظ برائحة السمك اللاذع فقط، وفي يوم دفن "ناعمة" سألت "شَمَّا" نفسها للمرَّة الأولى عن غرابة دفن الأجساد تحت التراب، بدلاً من أن تعود إلى البحر، لقد ظنَّت أن رائحة السمك المميَّزة دليل حيوي على إمكانِ أن نتحوَّل إلى أسماكٍ بعد الموت، ويتفسَّخ الجسد إذا لم يعد إلى البحر، ويتلاشى إذا دُفن تحت التراب، لكنه سيبقى حيَّاً وخالداً إذا دُفع إلى البحر لِيُنْشِئَ خَلقاً آخر، تعمَّقت لديها هذه الفكرة عندما أفضى لها "عزيز" بخوفه من جسد "عبد الرزَّاق" الهامد عندما مات على السفينة حتَّى أُلقيَ في البحر بعد أن بدأ الجسد التفسُّخ وطالت الرحلة، لقد غسَّلوه وكفَّنوه وصلُّوا عليه، لكنْ، نقص أن يهال التراب عليه، ذهب في البحر وغاب، حيث قد يكون تحوَّل إلى سمكة واحدة كبيرة أو مجموعة من الأسماك.

تعلَّمت "شَمَّا" القراءة مبكِّراً، كانت ترقب والدها وهو يُدوِّن أسماء التوابل والأعشاب وتسأله عنها، سعِد والدها باهتمامها وعلَّمها الأحرف وكيفية نطقها؛ وهذا ضاعف من سطوة أسطورتها لدى المناطق القريبة، لكن علاقتها بوالدها بقيت مجرَّد استئناس حذر، لم تكن له رائحة أُمِّها، كان حامضاً أيضاً كـ "عزيز" وإن كانت رائحة الحموضة التي تُشعِرها بالخوف هنا أقلّ، ترافق هذه الرائحة رائحةٌ أخرى كخشب محترق، في آخر مراحل الاحتراق، وعلى رغم

أنه كان محبّاً للعطور القوية والبخور والعود، ودائم التضوُّع بها، إلَّا أنها كانت تذوب في رائحة الخشب المحترق، تتعاظم هذه الرائحة كلَّما جلس أمام جدِّها، خانعاً صامتاً، لا يكاد يناقشه في شيء، ولا يرتفع بصوته عليه، حتَّى إنه كان أوَّل مَنْ أدرك مَلَكَتها، لكنه كان آخر مَن اعترف بها بعد مباركة الجدِّ، هو "بخيت ولد عبد الجبَّار" الذي بقي يحترق في ظلِّ سطوة الأب الجبَّار فعلاً، ولا يرى أحد ذلك سوى "شَمَّا بنت بخيت" التي تدرك الأمر مِن الرائحة.

تكبر "شَمَّا" في كلِّ حين تدرك فيه رائحةً جديدة، ويصغر "عزيز" مع نموِّ الفكرة في رأسه، لتفصله عن الواقع، ويزداد شروده حدَّة، حتَّى أمر الجَدُّ بأن يُؤخَذ إلى مطوِّع الحَيِّ، لعلَّ خطباً ما به يعطِّله عن أن يكون كرجال سلالتهم، حاضراً راسخاً قوياً وحادَّ الحواسِّ، بسمل عليه "المطوِّع" وقرأ من القرآن كثيراً، جلسات امتدَّت أشهراً، ولم تعالج هذا الشرود، بل زادته حدَّة.

تسكنه جنِّيَّةٌ عاشقة.

حسم مطوِّع الحَيِّ الأمر أخيراً، أحال عطب "عزيز" الرجل إلى تلك المرأة الخفيّة، تلك التي تستأثر بأفكاره وحضور حواسِّه، عليهم أن يتعايشوا مع ذلك؛ لأن إخراجها مستحيل، وعليهم أيضاً أن يتسامحوا مع أيِّ خطأ منه، فهي المَلومة لا هو، حاول "عزيز" أن يستسلم للفكرة، وتساءلت "شَمَّا": "أتكون هذه الجنِّيَّة الخفيّة هي مصدر هذه الرائحة الحامضة الممتزجة بالخوف؟".

شيريهان

دبي، الثالثةُ مساءً

شيري هاااا ننن، ما هذا الاسم؟

لا أعلم، أخبرتْني أُمِّي أنها اختارت هذا الاسم؛ لأن لصاحبته أنفاً جميلاً.

تجد نفسها أمام هذا السؤال والإجابة نفسها مع تقدُّم العُمُر بها، ومع انكشاف العالم الخارجي لها أكثر فأكثر، المدرسة، الجامعة، مجال العمل لاحقاً.

كان لاسمها ثقلٌ آخر، تشعر به مضاعِفاً ثقلاً فوق ثقلها، وتستغرب من قدرة صاحبة الاسم الأصلية على أن تتحرَّك وتتقافز بمنتهى الخفَّة عندما كانت أُمّها تريها جزءاً مصوَّراً من برنامج متلفَز، كانت صاحبته مالئة الدنيا وشاغلة الناس بخفَّتها ومرونتها، وبجمالها الذي لم يحصرها في إطار واحد، كما هي العادة مع وجوه الشاشة الجميلة.

شيريهان والفوازير وكثير من الألوان، وضحكة فاقعة، واسعة وممتدَّة، وموسيقا وضجيج، لا يُربكها، بل يجعلها كالمايسترو، تدور تلك الأشياء كلّها حولها، وتُرتَّب بفضلها، في انسجام متناغم.

تبدو تلك مشغولة بالحياة، مأخوذة بها جدَّاً، وودَّتْ لو تلتقي

بها لتسألها، لعلَّها تفهم سرَّ هذه الخفَّة القريبة إلى التلاشي دون أن تعبر إلى الضفَّة الأخرى نحو العدم، وبعيداً عن حِيلة والدتها، وسبب التسمية، وجدت نفسها تبحث في أصل الخفَّة التي كانت تتحرَّك بها "شيريهان" المصرية، هل كان الحال معها هكذا دائماً، تترصَّد فكرتها تلك، لا جمالها ولا ملامحها ولا أزياءها الغرائبية والأخرى الأنيقة التي كانت نموذجاً يُحتذى به في نهاية الثمانينات الميلادية، قبل أن تختفي، دون أن تعبر إلى الناحية الأخرى، تلاشت دون أن تموت، لكأنها كانت حكاية مكثَّفة وسريعة، وظلَّت هي تحاول أن تعرف إلى أين انتهى بها الحال؟ طوال سنوات مراهقتها، وكالفوازير والألغاز التي كانت سبباً في شهرتها، كان كلُّ ما يحيط بشيريهان المصرية في حكايتها السريعة بمثابة لغز كبير، دار كثير من الحكايات حول اختفائها، الذي بدا كأنه حدث لأنّ أحداً أدرك سرَّ خفَّتها الغامرة، فراح يسحبها منها شيئاً فشيئاً، وفاة أخيها الموسيقي عمر خورشيد في حادثة سير، ثمَّ إصابة والدتها بالسرطان ووفاتها، لقد عبرا نحو التلاشي تاركَيْن لها ثقل الجسد، ثقلاً كان أكبر من أن تحتمله، برز أثر ذلك الثقل على ظهرها الذي كان أوَّل ما أُصيب بعطب طويل الأمد بعد حادثة سير طاولتْها هي الأخرى أو سقوط من على المسرح، لا تعرف تحديداً، لأن الأمر صَاحَبَه عدد كبير من الألغاز والأقاويل المتداخلة حول الحادثة، بين المُدبَّرة والعارضة، لكنها لم تهتمّ لذلك بقَدْر ما اهتمَّت لرحلة علاجها الطويلة لظهرها المعطوب، أساس خفَّتها والقفزات، لقد كان كعصا المايسترو التي كُسرت، قد تكون تلك الأجساد أورثتْها أيضاً صرخة مكبوتة، هي شكل ألمها في لحظة التلاشي بين تهشُّم حادثة سَيْر أخيها وأوجاع سرطان والدتها، الصرخة

الدفينة التي انبثقت لاحقاً كسرطان خاصٍّ بها في غددها اللُّعابية، قبل أن تختفي، لكأنها مجرَّد حكاية لم تكن حقيقة يوماً .. تفكِّر بأن الصرخة المكبوتة كانت في حالة عمِّها راشد من نصيب جدَّتها التي بُحَّ صوتها سنة بعد أخرى، وكلَّما انحنى ظهر والدتها أدركَت أكثر أنّ الثقل كان من نصيبها هي.

شيريهاااااان!!!!

نعم.

لا، لا .. شيريهان الحقيقية في التلفاز.

كان ظهور "شيريهان" المفاجئ على شاشة التلفاز في حينها أمراً أعاد حماسة غريبة لوالدتها بعد انطفائها منذ سنوات طويلة، الأمر الذي جعلها تغضُّ النظر عن فكرة استخدامها للفظة "شيريهان الحقيقية" ممَّا يعني أنها على الجهة المقابلة، "شيريهان المزيَّفة"، النسخة المقلَّدة، تقليدٌ هو فاشلٌ بالطبع، نظراً لأن أنفها لم يكن يشبه بأيِّ شكل أنف "شيريهان الحقيقية"، تساءلت في وقتها بشكل عارض هل لأنف شيريهان الحقيقية الفاعلية ذاتها في التعامل مع الروائح؟ وهي تتابعها مع والدتها تتحرَّك وسط جموع من الوجوه المحتشدة في ميدان التحرير القاهري في أيَّام الدائرة الأولى من دوَّامة الربيع العربي، بألوان قاتمة، ووجه خالٍ من أيِّ مساحيق، ونظَّارة شمسية سوداء تحجب العينَيْن المشعَّتَيْن في الذاكرة، لكنها خلافاً لذلك أبرزت ذلك الأنف الشهير، الذي بقي مثالياً كما هو، خاطرٌ سنح لها هي ووالدتها في الوقت ذاته؛ لأنها سألتْها:

لا تزال تحتفظ بأنفها الجميل، أليس كذلك؟

أجل، يبدو ذلك.

فَتَرَ اهتمامها بشيريهان الحقيقية بالتدريج بعدها، شاهدت لها لقاءَيْن مُتلفزَيْن أو ثلاثة وهي تتحدَّث عن الفنِّ والحياة، شعرت، على رغم أنها لم تتغيَّر كثيراً من حيث ملامحها الظاهرة وأناقتها اللافتة، بأنها لم تستطع أن تحلَّ لغز الثقل الذي سرق منها توهُّج عينَيْها الحيويّ، وانسيابها في الحركة، هي تدرك أنه لم يكن في العمق أمراً مرتبطاً بتقدُّم العُمُر والمرض فقط. تابعت بعض المواقع الشبكية والأخبار التي تحدَّثت بإعجاب عن عدم انفصال الفنَّان عن معاناة المجتمع، وضرورة أن يكون له موقف سياسي واضح، وغيرها من الكليشيهات المكرَّرة، وعلى رغم كلِّ شيء كان ذلك يمرُّ بمحاذاة دوَّامة الربيع العربي المتفاقمة دائرة بعد أخرى لترسيخ مطالب الحياة الكريمة، إلَّا أنها لم تكن من مكانها الوادع في "دبي" مأخوذةً أبداً بأمر الأحياء، لعلَّها لم تكن كذلك يوماً، جذبتْها فقط الدائرة الأخيرة من الدوَّامة، الدائرة الواسعة في آخرها، التي تنتشر فيها الشظايا ويفوح منها الموت، تلك التي جعلت الجثث تنتشر في كلِّ مكان، على شاشات التلفاز الإخبارية، وفي المواقع الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي، شعرت بأنها استعادت مَقْبَرَتَهَا، كانت تفكِّر وهي تتأمَّل هذه الصور الطافحة المتفسِّخة بالخفَّة التي اكتسبتها تلك الكائنات أخيراً، بتحرُّرها، لعلَّها استراحت الآن من غضبها العظيم، الغضب الذي كانت له أشكال عدَّة، كلٌّ وحكايته بين الجوع والظلم والقيود والسيطرة، لكأن أصل كلِّ شعور هو الغضب، لطالما كان الأمر كذلك

منذ بدء الخليقة، فدائماً كانت آلهة الحروب تتصدَّر الحكايات، توزِّع المصائر، تحرق وتشعل وتثور وتنتفض وتثأر، غاضبة دائماً، وحقيقية دائماً، ففي تراتبية الآلهة، ضمنياً كان الأمر أو ظاهراً، ربُّ الغضب هو ربُّ الأرباب جميعهم، ربٌّ يريدُ أن يعود بالكائنات إلى نقطة التلاشي، حيث الحُرِّيَّة على ما يبدو، تتذكَّر أنها في الوقت الذي انتشرت فيه، ضمن دوَّامة الموت في الربيع العربي، صورة علنية لإعدام بالنار الحَيَّة ، إعدام نفَّذتْهُ إحدى الجماعات الإرهابية في طيَّار شابٍّ يعمل في إحدى القوَّات الرسمية، وفي الوقت الذي كانت السجالات تدور فيه حول الوحشية والنفق المظلم الذي وصل إليه العالم المحيط ومشروعية نشر الفيديو المصوَّر أو عدمها، كانت هي تُعيد مشاهدة ذلك الفيديو مرَّات كثيرة بعد أن خزَّنتْهُ في جهازها اللوحي، تشاهده دون أن يرفَّ لها جفن في صمت تأمُّلي عميق، مطيلةً التحديق في حركة الشابّ، خوفه، والرعب أوَّلاً، ثمَّ التفجُّع والألم، ثمَّ الرفرفة، لقد رأتْها جيِّداً، إذ إنه قبيل أن ينتهي الأمر كان يحرِّك يدَيْه بما يشبه رفرفة الموشك على الطيران، لعلَّها اللحظة الدقيقة التي يكون فيها قد أدرك الأمر، أنه تحرَّر أخيراً وجسده يتهاوى على الأرض بثقله، كهيكل مهجور لم يعد مهمَّاً، فلن يتبقَّى لذلك الجسد شيء ليقوله بعد أن تُحوِّله النار إلى ذرَّات من الرماد، كانت "شيريهان المزيَّفة" آنَها على أعتاب تخرُّجها من دراستها الثانوية، وقتَ اتَّخذت قرارها الحاسم، لقد وجدت أخيراً طريق الذهاب إلى المَقْبَرَة، المتلخِّص في أن تأتي المَقْبَرَة إليها بالأموات، بأن تستكشفهم مِن قُرب، تُحاورهم، مِن خلال أجسادهم الهامدة وما تبقَّى عليها من آثار مفضيةٍ ببَوَّابةٍ إلى ما بعد تلك اللحظة الأخيرة، فقرَّرت التخصُّص في الطبِّ الشرعي.

لعلَّها لعنة "شَمَّا"، لا يمكننا أن نتجاهل أنكِ من نسلها على كلِّ حال.

تلك هي العبارة الوحيدة التي نطقت بها جدَّتها بصوتها المبحوح وهي تنظر إلى والدتها نظرةً ذات معنى مُبطَّن، عندما شرحت شيريهان لوالدتها ما الذي يعنيه تخصُّص الطبِّ الشرعي، تذكر أنها في وقتها انتفضت كالملسوعة، وأنظار جميع مَن في مجلس السيِّدات تتَّجه إليها، ومعها عينا شيريهان التي لم تعرف ما الذي يعنيه ذلك، مَنْ تكون "شَمَّا"؟ فاحت رائحة خانقة أخرى إلى جانب الروائح الثقيلة لعطور النساء، رائحة مزجت بين احتراق الخشب واللحم الذي يُشوَى بفعل اشتعال ناره، قبل أن تترك والدتها المجلس متوجِّهة نحو سيَّارتها عائدة إلى البيت، عادت شيريهان يومها إلى البيت مع أحمد الذي أصبح موظَّفاً في هيئة الطُّرُق والمواصلات، بعد أن أتمَّ سنواته الجامعية في دراسة الهندسة المدنية، كما إنه أصبح الآن يدخِّن دون حرج أمام والدهما، أطلعتْهُ على ما حدث في مجلس السيِّدات، قبل أن تسأله متوقِّعةً منه إجابة كعادته إذا استعصى عليها أمر من خبايا هذا المنزل الكبير.

مَنْ تكون "شَمَّا" هذه؟

ما الذي يجعلكِ تريدين أن تدرسي هذا التخصُّص المريب؟ هذا تخصُّص لا يليق بالفتيات.

حارت في جواب أحمد، ليس لأنه لم يُطلعها على هويَّة "شَمَّا" المجهولة التي قد تكون ورثت منها لعنةً ما، بل من كون هذا المهندس

الشابِّ، في هذه المدينة المنفتحة على الاحتمالات جميعها منذ السبعينيات، لا يزال يرى أنه هناك ما هو لائق بالفتيان دون الفتيات، أرادت أن تفتح معه نقاشاً طويلاً في ذلك، لكنها استشعرت أن الأمر لن يقود إلى نتيجة ملموسة، منذ أن أخذ ذلك الصمت المريب ينمو بينهما مع تقادُم العُمُر بهما، ثمَّ إنها لا تريد منه سوى أن تعلم: هل يعرف "شَمَّا"؟ وكلُّ ما خلا ذلك هو هراء، فالأمر أوَّلاً وأخيراً يرجع إليها، ثمَّ لوالدها الذي لم تُبْقِ له الخفَّة التي اكتسبها بعد وفاة عمِّها إلَّا أيَّاماً معدودة في الشهر، يقضيها معهم في البيت، ويوم الجُمُعة في البيت الكبير، قبل أن يعود إلى تحليقه من جديد، قال والدها إن لها أن تدرس ما تريد، ما دام هذا ما تريده فعلاً، هل جعلتْه الخفَّة يتعالى ليرى ما هو أوسع من شابٍّ وفتاة ورجل وامرأة؟ هي لا تعرف هذا يقيناً، لكنها سعيدة بهذه النافذة، وتريد أن تستغلَّها حتَّى أقصاها.

كانت قد قرَّرت أن تعود بالسؤال إلى والدتها، على رغم ردَّة فعلها المُربِكَة في الظهيرة، إلَّا أنها لم تعد إلى المنزل بعد، وهو أمر أقلَقَ أحمد أيضاً، اتَّصلا مراراً بهاتفها الذي بقي مغلقاً لا يستقبل اتِّصالاً، حملا قلقهما إلى والدهما الذي قال إنها قد تكون حتماً عند صديقة أو قريبة، لكنهما يعرفان أن والدتهما توقَّفت منذ سنوات طويلة عن مقابلة صديقاتها، وانكفأت في عزلة منزلية لا يقطعها إلَّا زيارة الجُمُعة الإلزامية، كما أن عائلتها تكاد تخلو من القريبات بالمعنى الحقيقي للكلمة، فتاةٌ وحيدة لأب وأُمٍّ توفِّيا منذ زمن، وكلاهما وُلد وحيداً، خرج أحمد عند منتصف الليل باحثاً عنها، لكنّ بحثه العشوائي لم يأتِ بنتيجة، قضيا الليلة في قلقٍ موحَّد، كان قلقاً غريباً، له رائحة

دافئة كسَرَت من رائحة أحمد الحامضة، وللمرَّة الأولى تجد نفسها تجلس بجواره كَتِفاً لكَتِف، كأخ وأُخت، شعورٌ لم تألفه في آنِها تجاه هذا الغريب الذي يجاورها، والذي يشاركها كلَّ شيء مادِّي في هذا البيت الكبير بغُرفه الكبيرة الواسعة، دون أن يتَّخذ المعنى أيَّ حيِّز بينهما، جعَلها ذلك ترغب في البكاء، كان هذا القلق هو حيِّزهما المعنوي الأوَّل منذ أن أدركا العالم كراشدَيْن، بَتَرَ أفكارها صوت البَوَّابة الكبرى للبيت وهي تُفتَح أوتوماتيكياً؛ وهذا يعني أن أحدهما قد عاد أخيراً، والدٌ اعتاد على عشوائية مواعيده، ووالدةٌ حاضرة دائماً، حتَّى إن غيابها الآن يظهر كفاجعة.

أطلَّ وجه والدتهما الشارد وهي تدخل، هرعا إليها مسرعَيْن، كصغيرَيْن، مستفسرَيْن عن غيابها المباغت:

لقد قلقنا عليكِ، أين كنتِ؟

كنتُ في زيارة قريب.

حتَّى الآن؟

كانت الساعة وقتَها تقترب من الرابعة فجراً، سؤال أحمد جعلهما تدركان الوقت في شيء من الدهشة، لكن والدتهما بَتَرَت حواراً لم تُرد إكماله، وصرَّحت بأنها متعبة، قبل أن تتركهما في حَيْرَة مشتركة حلَّت مكان القلق الذي تبادلاه بينهما منذ قليل، إلى جانب رائحة أليفة لا يعرفها أحمد بقَدْر ما تدركها هي جيِّداً، رائحة الهواء الحيوي للمنطقة المحيطة بسور المَقْبَرَة في حَيِّ طفولتهما، مختلطةً برائحة المرارة اللاذعة التي لم تفارق والدتها منذ وفاة عمِّها، هل كانت تزوره؟!

النار، تلك الكتلة

بين سامرّاء ومكّة 267 هـ - 881 م

يُدوَّن تاريخ العالم بدءاً من الماء، من اللحظة التي شُكِّلت تلك الكثافة السائلة، فمنحت حياةً أولى، لكلِّ ما حولها. ويشيرون إليَّ فيما بعد، كأوَّل إدراك لقدرة الكائن الذكي على إشعال الفكرة، ومنها بدأ تاريخ العالم بشكله البشري، لكنْ، أليس في الأمر تدليسٌ واضح؟

لأنني ومنذ البدء، كنتُ الأشياء كلّها، متربِّصةً أجثمُ في داخل كلِّ ما هو حَيّ، أنتظر اشتعال الجُذوَة، أن أمنحه اكتمال التكوين، في فوران الماء وهو يَعصِف ليشكِّل تضاريس الأرض، وفي افتراس القوي للضعيف لتتشكَّل تراتبية الكائنات، وفي احتقان الخوف والرَّبكَة التي تلظَّت لتصقل مَلَكَة العقل، فكيف يكون التاريخ مائياً أو بشرياً وليس نارياً؟

كان تجسُّدي البدائي، يوم ظنَّ الإنسان أنه اكتشفني، هو تعبيرٌ عن الغضب الذي استعر فيَّ، لأنه كان عاجزاً عن تمييزي، فما كان منِّي إلَّا أن اخترتُ شكلي، أن اشتعلتُ، تسبقني رائحة الفوران الذي اعتمل بصدري قروناً .. أخفتُهُ في بادئ الأمر، حاول الفِرَار من نعيمي الذي سيُمكِّنه من الحضارة، فهادنتُهُ، طوَّعتُهُ وتقولبتُ، ليظنَّ أنه قادرٌ على التحكُّم بي، صنعتُ مصيرهُ وهو يعتقد بأنه يشكِّل قَدَري ويخلقني أوَّل مرَّة، ولا شيء لهُ أن يحتوي النار.

أخمدُ أحياناً، يُنهكني خلودي، فأتوارى، ويظنُّ الماء أن الغَلَبَة له، ويخترع البشر أشكالاً من الحواجز التي يخيَّل إليهم أنهم مَحميُّون بها منِّي، يلعنُ نفرٌ قليلٌ منهم ساعة الكشف عنِّي في التاريخ، وينسجون من المخيِّلة مَرويَّاتٍ كبرى عن الدمار، ويُمجّدني كثر، يعبدني القوي منهم، لأنني سلاحه، لأنه بي، يكتسبُ شيئاً من الخلود، يتَّقد بسخَطي ويصنع مجده.

أتمكَّن من الصدور، فتضطرم الأصابع بالدم، أتسلَّى فيما أتسلَّى بروائح العذاب، مدموغة أنا كقَدَرٍ أزلي على جلود بعضهم، هم أنا في هيئة أخرى، وأنا هم، أستعر في دواخلهم، لأكون كيانهم والمكوِّن، أنا النار، لا اللحم والدم والماء والعَرَق.

الرائحة أنا، أصل كل امتزاج بامتزاج ولا دلالة على الرائحة دون فوران في النواة بين شيءٍ وشيء، أنا الدخان بأشكاله المتعددة وهو يمهد لحضوري محاولاً أن يمنحني هيئة ما، إلَّا أنني خارج كل الهيئات، والرماد أثري الدائم، أصالة وجودي، ذلك الغبار الذي لا يذر في الأعين إلَّا ليعميها، أنا العمى في الرؤية، والبصر الساطع في العتيم.

ويظنُّ بعضهم، أنه ناجٍ منِّي، فيزيح عن أيَّامي شيئاً من الرتابة، يحفِّز غيظي، فأنتشي، أتابع ابن المعتزِّ وقبيحة في الطريق نحو مكَّة، وأدين فيهما السذاجة التي حصرتْني في مكانٍ دون آخر، أتسلَّى فيما أتسلَّى، بأن أتخايل لهما بين قفرٍ وجبل، بين نخلة وكثيب، حتَّى ليظنّ ابن المعتزِّ أنني قد قبضتُ عليه لا محالة، فأُفلتُهُ لأستمتع بالخوف الكامن، أترصَّده فيه وأتشَّهاه.

كنتُ فيما خلى ذلك أراقبه في القصر، وهو يحاول أن يهرب من عينَي والده المعتزِّ وقلبه، يخشى أن يراني من خلالهما، فأنسلُّ إليه دون أن يشعر، وأودُّ فيما أودُّ لو أقول له إن تمكُّني منه، سيكون وقعه عظيماً، مباغتة مُدوِّية، فوالده في السجن، استمع لهسيسي أيَّاماً، يفتِّش عن مصدري ولا يراني، ينتظرني ولا أظهر، يتناساني فأتهيَّأ، حتَّى شققتُ دربي لصدره، ذات فجر، وهو يتوضَّأ قاصداً سكينة الفجر، كنتُ الفرقعة بين القطرة والقطرة، ومن يومها، لم يقصد صلاةً لفجر، دون أن يتنشَّق الدخان، بعد أن يُوقظه الهسيس، وصوت الطرقعة، فأنا احتراق روحه الأبدي، وهي تتلوَّى في انتقام ممتدٍّ، لا ينتهي، بمجرَّد أن يُراق دمٌ مؤقَّت، فالدمُ لعنةٌ، وهي تشكُّلٌ لغلياني.

كبر الصغير مدرَّباً على الخوف والفِرَار، جاء فِرَاره أوَّلاً من عظيم ما في القصر إلى الدنيء فيه، وعندما اشتعل فيه الجسد، هدَّأتُ من روعه بماء الرغبة الحار، منحتُهُ "نَشْر"، وبقيتُ أقيم في الاحتكاك الجسدي بينهما، أُهادن ذلك الاستعار، لأنني وحدي مَنْ سيتمكَّن من النيل من قلبه، عندما سأنزرع ككتلة لهَّابة، أمَّا يوم أضاء القلب، بلهب وهاج فيه، ونشوان يتراءى له بالضحة والرِّبكَة، فقد كنتُ في قطرات العَرَق الحارَّة، وهي تداري فكرة الحُبِّ، باجتراح اللذَّة، لأنهما في غضاضتهما تلك، ربطا نار الحُبِّ بالجسد، وهي أجيج في الروح، وروح ابن المعتزِّ، ستكون لي في النهاية .. فلا نَشْر ولا نشوان، وفي جزيرة العرب سأدع له أن يكتشف ذلك ببطء، وكلُّ كشفٍ له عذابه المتدرِّج. أتسلَّل لنومه، فأكون الحُلْم والكابوس معاً، الظفر والهزيمة، والعطش والرواء الذي يتشهَّاه بدِجْلَة الذي غاب عنه قسراً .. يخيَّلُ

إليه أنه سارٍ في وَجْدهِ إلى الماء، وهو في حقيقة أمرِه في توقٍ لالتحامنا معاً

ورغم أنه في مكَّة لم يكن هناك ماء

ممَّا ضاعف فرصي وسهَّل وصولي

إلَّا أنه في مكَّة أيضاً

كانت القصيدة ..

إغفاءة قصيرة

قبل جهنَّم.

عبد العزيز

جزيرة كبش القَرَنْفُل - العشرينيات الميلادية

"رحنا السفر
والموج يانا جبال
في غبةٍ منها المنايا
قريبة"

عزيز، هذه الرحلة هي فرصة جديدة لتؤكِّد أنكَ من نسل آل التوابل. يهمس له "مظفَّر" - ابن العمّ - وهما يباشران معاً رحلة أخرى، هي بمثابة فرصة أخيرة لعزيز بعد نبأ الجنِّيَّة العاشقة، التي قد تكون بدورها معهم اليوم على ظهر السفينة التي تخرج من الخليج العربي إلى المحيط الهندي، بين زنجبار ومومباسا، وانتهاءً بسواحل جُزُر الهند. كانت هذه الخارطة مرسومة لهم بدقَّة، لا يحيدون عنها. وفي كلِّ مكان لهم فيه أن يكتشفوا أجود التوابل بين القَرَنْفُل والفلفل والقرفة وجوز الطِّيب، فهم من أبناء السلالة المصطفاة، سادة البحر الجدد.

كانت الأهازيج عالية، وشعر "عزيز" بأنه يريد لو أنها تصمت، ليستطيع أن يستوعب جَسَدَه الذي راح يفقد السيطرة عليه كلَّما تعمَّقوا في سبر البحر، وضبابية الأشياء حوله، كان يشعر بالغثيان، ويودُّ لو أنه يتقيَّأ، لكنه يعلم أنه كان، طوال الوقت، تحت عين الجَدِّ

"جبَّار" وأن أيَّ ردٍّ فعل ينمُّ عن الضعف قد يعني أن يخسر هذه الفرصة التي ربمَّا تُخرِجُهُ من مساحة اللامرئي إلى المرئي.

كان جَدُّه "عبد الجبَّار" إله السفينة بكلِّ ما تعنيه الكلمة، جميع مَنْ عليها يدور حوله، يُبجِّلونه، يتهيَّبون التفاتاته وسكونه، وكان بجسده الضخم وعينَيْه الواسعَتَيْن وأنفه المستدقّ، يُذكِّره دائماً بما تتناقله الحكايات عن "بو درياه" جنِّيِّ البحر! لأن أهل الساحل والسفينة بقدر ما يخافونه فهم يلعنونه أيضاً، هو الذي يتهامس كثر منهم أنه مقابل هذه المكانة الإلهية قد باع روحه للشياطين أصحاب العيون الزرق من الإنجليز، الذين يتحكَّمون بجميع المصادر والمصائر على الساحل وفي البحر، ويقايضهم على المكانة بما يُزوِّدونه به من خرائط وأدوات للبحث عن التوابل دون خوف، ودون أيَّة رحمة لمَنْ يعلمون معه، فكلُّهم حوله على السفينة عبيدٌ مُسخَّرون للبهارات والتوابل.

لا يكاد عبد العزيز يلمح والده على السفينة، فهو دائماً مختبئ وسط تماوجات الأجساد وحركاتها، يدور معهم حول الإله، لكنه لا يريد أيضاً تفاعلاً مباشراً معه .. يعلم أيضاً ممَّا سمعه من أُمِّه أن عبد الجبَّار أصبح إلهاً، لأنه كان المغامر الوحيد الذي دخل بسفينته جزيرة الجنّ؛ "كبش القَرَنْفُل"؛ تلك الجزيرة التي لم يجرؤ أحدٌ على اقتحامها لما يُتناقَل من أخبار الجنِّ الذين يزرعون أجود أنواع القَرَنْفُل فيها، وأن مَنْ يدخلها قد يحصل على القَرَنْفُل الفاخر، لكنه من المؤكَّد ليس له أن ينجوَ من لعنة يختار الجنَّ أن يصبُّوها على مَنْ يضع الفاخر من التوابل في جَعْبته.

أتكون اللعنة التي لحقت بهم هي فقدانه لحاسة الشَّمِّ؟ أيكون هذا هو موطن الجنِّيَّة التي عشقتْهُ، لكنْ، ما ذنبه هو؟

وكلَّما جاءت سيرة القَرَنْفُل يتذكَّر كيف أن جَدَّه يمضغ هذا البهار بشكل دائم، وأن "شمَّا" تكره هذا القَرَنْفُل الذي يشبه في شكله المستدقّ "المسمار" كرهاً شديداً. ظنَّ في فترة أن سبب قوَّة جَدِّه هو تناوله المستمرّ له، وعندما جرَّبه ارتاع من شعور بالخدر في فمه فبصقه، وهو مُتعجِّبٌ من قدرة الجَدِّ على احتمال هذا الشعور.

وصلوا إلى الجزيرة المنشودة كمحطَّة أخيرة، وقد كان عددهم 25 رجلاً على متن هذه الرحلة بين السادة من التجَّار ومساعديهم، وقبطان السفينة ومساعديه، وأخيراً العتَّالة من العبيد .. وبين أولئك كلِّهم لم يعرف عبد العزيز موقعه منهم بالضبط، على عكس مظفَّر الذي راح نجمه يسطع رحلة بعد أخرى. تراءت تلك الجزيرة مقفرة من البعيد، لكنهم كلَّما اقتربوا منها وتعمَّقوا فيها، كانت تزداد خضرة. وشعر هو بالحسرة من عجزه عن إدراك رائحة ما حوله. كان اسم شمَّا يتردَّد على السفينة والبر الجديد لكأنها معهم، وكان ذلك يثير حفيظته، يبتعد عن جدِّه كلَّما أتى على ذِكْرها، يركض، يحاول أن يجد لنفسه مهرباً من ذِكْر تلك اللعنة الخارقة التي جعلتْهُ معطوباً. تبتلع عيناه بشكل سريع المشاهد من حوله، رجال التوابل وهم ينسجون عتادهم للمبيت والحصاد، دهشة بعض الصِّبْيَة الجدد على السفينة من عُري جذوع عدد من سيِّدات قبائل الجزيرة اللواتي كشفنَ عن صدورهنَّ أيضاً، أصحاب العيون الزرق الذين كانوا هنا أيضاً يتجوَّلون ويُشرفون على أسواق بنوها بأنفسهم لمقايضة التوابل، لكنه يعلم أنهم

مختلفون عن الإنجليز الذين يعرفهم، هم يُسمُّونهم "الهولنديِّيْن" هنا. و"عبد الجبَّار" بسبره لتجارة التوابل هنا، يُوفِّر على الإنجليز صراعاً مباشراً مع المستعمرين لممالك أخرى؛ أمور لا يريد أن يفهمها ، أمور يودُّ لو أنه يهرب منها كُلِّيَّاً، يصل في آخر ركضه إلى رابية بعيدة، ويصرخ بصوت حادٍّ، عاجز ومُتعِب.

يسمع ضحكة مكتومة فيلتفت، كانت فتاة من سكَّان الجزيرة، لكنها كانت - على عكس الجذوع العارية المحيطة - ترتدي الرداء الأبيض بشكل كامل، لها ملامحهم المنمنمة، ولكن أنفها كان مختلفاً، يشبه أنف شمَّا تماماً، اقتربت منه، فجزع، لكنها واصلت الاقتراب ضاحكة، فاستسلم، مدَّت له يدها، كانت تحمل كمشة من القَرَنْفُل، بقي ينقل بصره بينها وبين ما تحمله، فأخذت يده، ووضعت فيها القَرَنْفُل، تناوله مُستغرِباً ومُستفهِماً، فابتسمت وراحت تزيح عن جسدها الرداء الأبيض، كان جسدها ضئيلاً، وخمَّن من تقاطيعه الصغيرة أنها قد تكون في عُمُره نفسه تقريباً، وكلامها في أوَّل عامه اليافع رغم أنها تفوقه طولاً، شعر بازدياد نبضات قلبه وبالإثارة أمام هذا الجسد الأنثوي الذي لم يسبق له أن شاهد مثله بهذا القرب والوضوح، لكنه أيضاً لم يستطع أن يغالب شعوراً بالتَّقزُّز سيطر على مواضع حواسِّه كلِّها التي قد تتفاعل مع الماثلة أمامه، هو الآن أمام نقطة اختبار حقيقية لبلوغه، ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يتجاهل هذا الأنف الذي لا يجعله يرى فيها شيئاً سوى ما يُذكِّره بشقيقته؛ أنفها، هذا الأنف الضخم هو كلّ ما يراه الآن، هو كلُّ ما يسحق رجولته الموشكة على التشكُّل، والتي تجعله لا يرغب بشيء آخر سوى الفِرار نحو الماء الذي ابتعد عنه لتوِّه. بقيت هي تحدِّق فيه مبتسمة، ولم

يفهم إن كان هذا طقساً من طقوس الجزيرة الغريبة! وفكَّر في الجنِّيَّة العاشقة التي ليس له أن يراها، ماذا كانت لتفعل الآن؟

تصاعد شعور الغثيان، وازداد اضطراب قلبه، رمى كمشة القَرَنْفُل وعاد معاكساً، وهو يدفع بالفتاة لتسقط على الأرض في شهقة مشدوهة، يركض وهو يعاود رؤية ما رآه في طريقه إلى الرابية، ويلعن شمَّا التي ترافقه حتَّى وهي في أبعد نقطة ممكنة، وصل متعباً، وأخذ يتقيَّأ وسط رجال القافلة الذين تحلَّقوا حوله بدهشة وإشفاق، في حين حاول والده مع مَنْ يعاونه من العبيد أن يقترب منه، لولا أن الجَدَّ أمسك به بذراعٍ قوية، وهو يرمق "عزيز" العاجز بنظرات نارية، ويصرخ بالعبيد أن يتجمَّدوا، فلا يلمسه أحدٌ منهم.

رفع عزيز من قلب انهياره رأسه، ليرى تلك النظرة المشتعلة بغضبٍ مُستعر، غضب إله لا يعرف الرحمة حتى تجاه مَنْ هم أقرب إليه، ما داموا سيعيقون سيرة التوابل الناصعة، ويُربكون السلالة رغم التفسيرات والمبرِّرات الممكنة كلِّها، ومن خلال ذلك الاشتعال أدرك عزيز أيضاً أن لعنةً جديدة ستحلُّ عليه قريباً.

شيريهان

دبي، السادسة مساءً

شيريهان.

نعم.

اسمكِ يعني الأميرة المحبوبة بالتركية والفرنسية معاً.

قال لها ذلك في أوَّل لقاء لهما بعد سنوات، لم يكن الأمر مصادفة، هو الآن خطيبها، لم يعد مجرَّد الفتى "ناصر" صبي المَقْبَرَة، تنبَّهتْ يومها إلى أنها لم تفكِّر قطُّ بمعنى الاسم المجرَّد، بقدر انشغالها بصاحبته التي سُمِّيت باسمها، كانت تشعر بأن المعنى هو في خطِّ التشابك الذي قد يجمع حياتها وحياة شيريهان الحقيقية معاً، ودَّت لو أنها تقول له ذلك، لكنها شعرت بالاستفزاز، استفزَّها وجهه المتحذلق وهو يضع هذه المعلومة أمامها، بعد مرور أعوام على اللعب بمحاذاة سور المَقْبَرَة.

المنبوذ للمنبوذة

هذه هي الحال، لكأن سور المَقْبَرَة الذي حاذياه صغيرَيْن هو خطُّ حياتَيْهما المتَّصل، وكانت قد اتَّخذت قرار دراسة الطبِّ الشرعي على رغم السخرية ومحاولات شقيقها أن تجد ما يليق بفتاة:

-ما الذي يعنيكِ في فهم السبب الذي مات لأجله غريب لا تعرفينه؟! لقد ترك الحياة وانتهى، هل ستحتملين رائحة الجثث المتفسِّخة، وجوهها المهشَّمة، تفاصيلها القذرة؟!

هي تعرف ذلك، وتدرك أن عليها أن تجوس الجثث مراراً من أوَّلها لآخرها، لكي تستطيع أن تستكشف سبب الموت، لكنّ ما كان يعنيها في حقيقة الأمر هو شيء آخر كلِّيّاً، كانت تريد أن تكتشف سرَّ التلاشي، وأثر الخفَّة الذي قد يَهديها إلى مفتاح ما، تفتِّش في الموت عن "الموت" ولا شيء آخر، إن اقترابها من الجثث يعني اقترابها منه هو، تأمُّل صَنْعَتِه التي لم يحدث أنْ أخفقَ في اتِّقانها يوماً، بأشكال عدَّة وأسباب شديدة الإلغاز في كثير من الأحيان، وكلَّما احتقن غضبها فكَّرت بقدرة الموت على إلقاء المرساة، إنهاء الرحلة، وبسط حالة هائلة من الطفو غير المتناهي، بغير مبالاة؛ لأن العدم الخالِص هو غيابٌ لأيِّ اكتراث، لكن طريق وصولها إلى تخصُّص الطبِّ الشرعي كان وعراً كطريق النسوة اللاتي لا يذهبنَ إلى المَقْبَرَة، إذ إن فكرة أحمد لم تكن هراءً يخصُّه وحده، بل كانت تشي بنمط مجتمعي مُبطَّن، جعل جامعات دبي والإمارات الأخرى في الإمارات تخلو من الإناث في تخصُّص الطبِّ الشرعي بعد مزاولة تخصُّص الطبِّ العامِّ، الذي كان المرور من خلاله بَوَّابة ضرورية لأيِّ تخصُّص طبِّي، تتلوها مشكلة عدم توافر معامل تدريبية، تسمح بوجود الطالبات لاحقاً، وتمنحها القدرة على مزاولة المهنة كما هي، وهذا ألزمها البحث عن طريق آخر، استلزم انتقالاً جذرياً إلى خارج الدولة، ومِن هنا كانت تعلم مُسبَّقاً أنها على وشك مواجهة مع هراء أحمد من جديد، لم تكن

تضع والدها في الحسبان، لكن الأمر بدا كما كان منذ سنوات عندما أصدر الأب قراره الحاسم بأنها كبرت على اللعب بالخارج، وقد وقف كَسُوْرِ المَقْبَرَة هذه المرَّة، ممثِّلاً الحاجز بينها وبين الوصول إلى السرِّ، للتسلُّل إلى الموت في مملكته.

لكنْ، لماذا يا أبي؟!

لكِ ما ترغبين فعله هنا، أمَّا أن يتعدَّى الأمر حدود الدولة، فهو مستحيل.

إذن، فأنا لن أستكمل دراستي الجامعية.

الأمر راجعٌ إليكِ، يمكنكِ ألَّا تكمليها، أو تكمليها هنا إن شئتِ، بإمكانكِ أن تصبحي طبيبة هنا، ثمَّة كثير من التخصُّصات الداعمة.

لكنني لا أريد أن أكون طبيبة أيٍّ من التخصُّصات هنا، أريد أن أكون طبيبة شرعية.

أنتِ تُصعِّبين الأمر على نفسكِ فقط.

ليكن، لن أُكمل دراستي الجامعية.

كما تشائين.

لم يكن لدى والدها سبب مُقنع، كان تناقُضُه صارخاً، لكنها لم تكن تريد أن تشغل بالها بتفكيك هذا التناقض، فباشرت فور أن نالت شهادتها الثانوية، ودون علم أحد، بمراسلة الجامعات المتخصِّصة

في علم التشريح الطبّي وتخصُّص الطبِّ الشرعي، حتَّى أتتْها موافقة جامعة من الجامعات في أسكوتلندا، كانت تلك النقطة التي شعرت عندها بالاطمئنان، بعد أن نسَّقت من خلال المراسلات أنها ستبدأ دراسة الطبِّ العامِّ في دولة الإمارات، على أن تستكمل تخصُّصها في الطبِّ الشرعي لدى هذه الجامعة، كان الأمر مماثلاً عقدة الحبل التي ربطَتْها لتذكِّر نفسها دائماً، ولكي لا تستسلم في نهاية سنوات الطبِّ العامِّ لفكرة التخصُّص في أيٍّ من التخصُّصات المتوافرة والمتاحة في دولة الإمارات، تلك الملائمة خصِّيصاً للفتيات، وَفْق تعبير أحمد.

قضت سنواتها الدراسية في اجتهاد حقيقيّ وعُزلة، كانت تريد بلوغ الهدف، وأكثر الفصول التي كانت تثير اهتمامها وحماستها هي تلك التي يدور الحديث فيها عمَّا تصل إليه الأعضاء البشرية بعد أن يصيبها العطب في طريقها إلى التلف، كانت ترى في ذلك بَوَّابات صغيرة لفَهْم فكرة التلاشي التي أُخِذَت بها، بقيت بعيدة دائماً من خلالها مِن تفاصيل العائلة، لكأنّ تخصُّصها أصبح مَبعثَ نبذٍ جديداً بَعد أنفها الذي لا يتَّفق مع أنوفهم، ففتيات العائلة اخترنَ من التخصُّصات أيسرها، كما يليق بالفتيات بالطبع. قصَرت زيارتها لبيت الجدَّة على يومَيْن، هما العيدان فقط، بعد أن نجحت في أن تختلق لنفسها حججاً متنوِّعة مرتبطة بالانشغالات الدراسية، كما يليق بطبيبة قيد الإعداد.

حتَّى أطلَّ هو مِن جديد ..

المنبوذ للمنبوذة

أدهشَها الأمر حقّاً، عندما جاءها الخبر مِن والدتها، لقد تقدَّم لخطبتها فتى المَقْبَرَة، الذي كان آخر عهدها به هو السور، لم تفكِّر به، لم يكن لغيابه أثر مُهمٌّ فيها بعد انتقالهم من الحَيِّ، بل إنها شعرت بأن جزءاً من حمولة الغضب التي كانت تعتمل في داخلها قد خفَّت، ما الذي جعله يبحث عنها بعد هذه السنوات كلّها؟ هل هو بحثٌ أو مصادفة؟ أتى مِن جديد كما هو دوره الأوَّل في حياتها، بمثابة إلهاءٍ عن هدفها الرئيس، وكان الأمر مثيراً للحَنَق في وهلته الأولى، أرادت أن ترفض مباشرة، لولا الثقل المباغت الذي شعرت به يُكبِّل لسانها، بقيت تُحدِّق في والدتها بصمت قبل أنْ تنطق بما يخالف رغبتها كلِّيّاً:

متى حدث الأمر؟ ولماذا أنا؟

ألستُما على تواصل؟

لا!

يمكنكِ أن تثقي بي، أنا والدتكِ، أظنُّكما على تواصل، لقد تابعتُكما دائماً في أثناء أوقاتكما الطويلة بمحاذاة السور، هذا تواصل ليس له أن يُبتَر بسهولة.

لكنني لا أعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

كيف وجدَتْنا عائلته إذن، أنا لستُ على تواصل مع أحد من عائلته الغريبة، ولم يكن يجمعنا بهم سوى حَيٍّ مشترك قبل انتقالنا.

لا أعلم.

إذنْ، هل توافقين على أن تزورنا عائلته؟

همَّت بالرفض، كما أرادت من البداية، لكنها وجدت نفسها تقول:

نعم، إن ذلك ممكن، أظنُّني أريد أن أعرف كيف وصلوا إلينا بعد هذه السنوات كلّها.

المنبوذ للمنبوذة

تتهامس الفتيات في العائلة فيما بينهنَّ، وهنَّ يذكرنَ "ناصر" الذي لم يرغب أحد من الفتية والفتيات في أن يضمَّه إلى مجاميع اللعب، الغريب برأسه الكبير، الذي لم يكن أهلاً للثقة، والذي لم يكن يفعل شيئاً سوى التحديق بشيريهان ببلاهة وهي تَحفِر كالمجنونة بمحاذاة سور المَقْبَرَة في الحَيِّ.

ثمَّ تمَّ الأمر سريعاً، لقاء بين العائلتَيْن، يفصل بين الرجال والنساء، ثمَّ لقاء بينهما بحضور الجميع، وكما كان شعورها عندما رأتْهُ قبل سنوات، للمرَّة الأولى، شعرت بأن لوجهه لا يزال حافزاً لاستعار غريب، غضب محتقن، يتصاعد بمجرَّد أن تبرز ملامحه، كان بعيداً في المجلس يومها، يجلس بجوار والدته، يحمل ابتسامته البلهاء نفسها، التي لم تنجح لحيته الخفيفة في إخفائها، لا يزال رأسه يحمل عدم التناسق في الحجم نسبياً بينه وبين بقية جسده، ولا تعرف كيف يراها هو اليوم، أَلَا تزال في عينه تلك الفتاة ذات الأنف الكبير بحَنَقها غير المسوَّغ تجاهه؟ فكَّرت يومها في أنه قد يريد أن يرتبط بها لينتقم مِن المرَّات كلّها التي عاملتْهُ فيها بغضب وجفاء، إضافة إلى تعفيرها المستمرِّ وجهه الأبله بالتراب.

أريد أن أراه وحدنا، قبل أن أمنحكم جوابي النهائي.

رأى والدها أنها كانت تتحرَّك في مساحتها المرسومة داخل الحدود الجغرافية، وهذا لم يجعله يرفض الفكرة، اختارت مكاناً كانت تقصده أحياناً بعد الجامعة، كان بمحاذاة مَقْبَرَة بالطبع، المَقْبَرَة بعيدة بعض الشيء، إلَّا أن اللافتات تكفَّلت بالإيعاز بأنها محاذية، وهذا جعلها تتساءل دائماً عمَّا يجعل شخصاً يفتتح مقهاه هنا، أتراه يكون مأخوذاً بفكرة المقابر كما هي مأخوذةٌ بها؟

شعرت بأنها تستعيد أيَّامهما القديمة فعلاً، وبخاصَّة في لحظتها تلك، وهي تحدِّق في وجهه الناظر إليها ببلادة وتحفُّزٍ معاً، لعلَّ هذا كان أكثر ما يغيظها منه، هو أنها لا تستطيع أن تُمسك بتعبير واضح في وجهه، لم تفهم في السابق أهو مستاءٌ منها أم متعجِّبٌ أم ذاهل؟! كما أنها لا تفهم الآن هل قال معلومته تلك عن معنى اسمها لينتظر ردَّ فعلها، أو أنه قالها هكذا على نحو عابر؟

إنهُ لأمرٌ مستفزٌّ.

معنى اسمكِ؟

عادت لتفكِّر في معنى الاسم مرَّة أخرى، وهي لا تُسقطه عليها بقَدْر ما تعود لتتأمَّل حكاية شيريهان الحقيقية، لقد كانت محبوبة بلا شكٍّ، هل كان هذا هو الجزء الذي منحها الخفَّة في وقت من الأوقات، في أوج شهرتها ومجد الفوازير والألوان.

لا.

إذنْ، ما المستفزُّ؟

أنني لا أستطيع أن أُميِّز رائحة فيكَ.

تحدَّثت عن الرائحة كأنها تفكِّر بصوتٍ عالٍ، واندهشت بعض الشيء من كيفية تسلُّل ذلك الأمر، فهي أيضاً لا تستطيع أن تميِّز له الرائحة الحامضة التي تعرفها في أحمد ووالدها والرجال، الرائحة المختلطة بعطورهم الرجالية، التي تعرف مكوِّناتها من مجرَّد استنشاق عابر، تستطيع أن تجزم بأنها تستطيع أن تعرف في هذه اللحظة المكوِّنات العطرية للرجال الجالسين جميعهم في المقهى، مع الدمغة الحامضة إيَّاها، دون أن تستطيع أن تُمسك برائحته هو، حتَّى عطره لم تستطع أن تميِّزه، قد لا يكون وضع عطراً معيَّناً، لكنْ، ماذا عن العبير الحامض؟

أيَّة رائحة؟

ما الذي جعلكَ تقرِّر خطبتي بعد هذه السنوات كلّها؟ هل تريد أن تنتقم مِن تلك المرَّات كلّها التي حثوتُ فيها التراب في وجهكَ؟

تنقَّلت ملامحه سريعاً بين الدهشة والانفراج نحو الضحك، ضحك طويلاً، وكلَّما طال وقت ضحكه اشتدَّ غضبها.

يبدو أن أفكاركِ الخيالية لا تزال على حالها.

ما الذي تعنيه؟

أعني، هذه الفكرة، إضافة إلى أنني لا أزال أتذكَّر حديثكِ عن الخفَّة

والثقل والأسرار الكامنة خلف سور المَقْبَرَة، لقد افتقدتُ هذه الأفكار كثيراً بعد أن انعزلتِ، قبل أن تغادروا الحَيَّ.

تأمَّلَتْهُ محاوِلةً أن تسيطر على حالتها الانفعالية؛ لكونه وصف أفكارها المصيرية بالخيالية، لكنها في الوقت ذاته أمسكت بطرف الحبل الذي سيقودها إلى مصيرها المتخيَّل الذي يراه.

مرَّة أخرى كانا يحاذيان السور ..

اسمعْ، دَعْنا نُوقِف هذه الأحاديث العبثية، أنا موافقة، ولكنْ، بشرط.

ما شرطكِ؟

أن أستطيع إكمال دراستي الطبِّية في تخصُّص الطبِّ الشرعي خارج الدولة؟

هذا شرطكِ فقط؟

نعم.

ما الذي جعلكِ تفترضين أني لن أوافق؟

أنا لا أفترض شيئاً، أنا أضع الشرط كما هو.

لكِ ذلك.

شعرت بانفراجة عالية، جعلتْها تتخيَّل أن من الممكن أن تتخلَّص

من شعورها المحتقن دائماً تجاهه، كما هو تعاملها اليومي مع مختلف أسباب مشاعرها الطارئة العَصيَّة على الفهم، ابتسمت له، وهي تتمنَّى ضمناً لو أن لها أن تحثوَ التراب في وجهه كما كانت تفعل سابقاً.

مضت الأمور بعدها بسلاسة، لكأنها كانت تسير وَفْق خطَّة غير معلنة، استكمال للزيارات الشكلية، ترتيبات تفاصيل المهر والسَّكَن، تحديد لموعد عقد القِرَان المبكِّر، وحفل عائلي اختارت هي أن يكون بسيطاً، وظنَّ هو أنها أرادت من ذلك أن تقلِّل النفقات تمهيداً حياتهما المستقبلية، لأنهما مقبلان على سنوات دراستها في الخارج، ظنٌّ حَسَنٌ سرعان ما بدَّدتْهُ هي ..

لكنني لا أريدكَ أن تأتي معي!

لماذا؟!

عبُّود بو راسين

دبي - ديرة، العشرينيات الميلادية

وُلد "عبُّود بو راسين" في يوم ماطر مظلمٍ ووحيد مِن عامٍ ساطعٍ وقاحل، لكأنه حجب برأسه الكبير الضوء في ذلك اليوم الذي مكَّن الغيوم من التشكُّل، ثمَّ أتى بالمطر، تتندَّر بذلك القابلة التي شهدت ولادته المتعسِّرة، تندُّراً لم يتوقَّف عندها، بل اتَّسع ليشمل الحَيَّ بأكمله، فهو "عبد الله بن مبارك"، الذي أصبح مع الوقت "عبُّود"، ثمَّ "عبُّود بو راسين"، إشارة إلى ضخامة حجم رأسه الذي جعله كالمنبوذ بين أقرانه، أولئك الذين استمرُّوا في إقصائه بحِسِّهم الساخر الجارح، كان يشعر مع نموِّه وتضخُّم حجم رأسه أن كلَّ ما حوله يتصاغر: وجوه الناس، ملامحهم، البيوت والطُّرُقات، وفي المقابل كان يَظهَر برأسه الضخم وجسده الهزيل الأسمر وملامحه المنمنمة أقربَ إلى كائن سوريالي منه إلى حقيقي، يسأله أحد الصِّبيَة وسط نوبة من الضحك والمعايرة:

كيف لجسدكِ الهزيلِ أن يحمل هذا الرأس الضخم؟

بقي "عبُّود بو راسين" الذي كان قد بلغ العاشرة منذ يومَيْن وقتها يحدِّق إلى الطفل باستفهام حقيقي، تركه الصبي مع استفهامه المعلَّق واتَّجه نحو مجموعة الصِّبيَة الذين راحوا يضحكون وهم ماضون نحو الشاطئ، مكان تزجية الوقت إلى حين عودة الرجال الكبار من

أسفارهم البحرية، كان "عبُّود" يتجنَّب أن يذهب إلى هناك ما استطاع، تجنُّباً لحفلات التنمُّر المتواصلة، ويختار من الحَيِّ مناطق الظلِّ والانزواء التي ليس لأحدٍ أن يطارده فيها بتأمُّل رأسه الكبير والاستغراب منه .. ثمَّ وجد نفسه يذهب للسوق الكبير، يتجوَّل هناك وسط الزحام الملوَّن بين الباعة والعتَّالين والقوافل التجارية بأعراقها المتنوِّعة التي يعكسها أيضاً تنوُّع أزيائهم: كنادير، عقل عريضة غتر، وزَر أسفل جذوع عارية، لبوس بنجابية، بدلٌ أنيقة، ونفر قليل من ذوي البزَّات العسكرية الكاكية، لعلَّ أحداً لا يلحظه وسط الدكاكين المتراصَّة والمتقابلة في الساحة وبين أزقَّة ترابية محاذية لساحل "ديرة" الأجرد، لكنْ، مثلما كان لكلِّ حَيٍّ أو سوق مجنونه، أضحت للسوق الكبير وصْمته الخاصَّة المختلفة، "عبُّود بو راسين" الصبي بكندورته المصفرَّة المهترئة، ورأسه الذي ازداد ضخامةً مع الوقت، شعرٌ أكرت تنامى دون أن يكترث أحد لحلاقته، لم يكن لأيٍّ زحام أن يخفيه، على رغم أن اختلافه هناك بقي أقلّ حدَّة، وهو ما جعله يألف التجوُّل فيه، ويألف ناسه على تبايناتهم كلّها.

من الغريب أنه ليست لديكَ رائحة محدَّدة.

وماذا في ذلك؟

للجميع رائحة إلَّا أنتَ.

هل هذا أمر جيِّد؟

أظنُّ أنه أمر غريب بعض الشيء.

ما الغريب في الأمر؟

حتَّى "عزيز" له رائحة، على رغم أنها ...

رغم أنها؟

لا شيء.

جلسا متوازيَيْن بصمت، كانت المرَّة الأولى التي تحدِّثه فيه" شَمَّا" بعد أن تكرَّر تقاطعمها على هامش "سوق الدويات"، السوق الذي جاور سوق الذهب، في الفضاء الجغرافي والقيمة، فللتّوابل في قوَّة تأثيرها ما يتوازى مع الذهب في السوق الكبير، تقصدهما الأفواج المحمَّلة برائحة البحر القريب، وتحفظ "شَمَّا"، الفتاة الضئيلة بمخورتها الملوَّنة المشوبة بعفرات تراب خفيفة مِن جرَّاء حركتها المستمرَّة والسروال المذهَّب تطريزاً، عن ظهر قلب، تعرُّجات السكك الضيِّقة المتداخلة في كلَيْهما، وتداخل الروائح بسطوع المعادن التي تنعكس فيها شمس ضفة "ديرة" اللاهبة على امتداد خور "دبي" الشَّمَالي، تختلط ألوان الوجوه حتَّى تنصهر جميعها في لون مَن سفعتْهُ الشمس بين حُمْرة متوهِّجة لبعض الإنجليز وسُمْرة متوسِّطة لأهالي المكان والهنود، وأخرى داكنة عكسها حضور القارَّة الأفريقية في هذا المكان القَصيِّ من آسيا، تتمازج اللهجات واللغات، وتنسجم في نسيج من التفاهم الذي يعرفه أهل السوق، أهل الضفاف المنفتحة على كلِّ شيء، والتي لا غربة فيها ولا غريب، فللسوق قوانينه الخاصَّة التي تتشكَّل مع الوقت على نحو يكاد يكون منفصلاً عن الأحياء المجاورة، القيود أخفُّ حتماً ، الفواصل بين الطبقات والأجناس موجودة بشكل

أقلّ وطأة، أنتَ ربٌّ في دكّانكَ الخاصِّ ولكَ أن تُخَلِّق كونه المحيط كما تشاء، أنتَ مَلِكُ بسطتِكَ ولكَ أن تسنَّ قوانينها كما ترغب، لتتكوَّن مجموعة من الأكوان والممالك المتجاورة على امتداد زُرْقة الخليج العربي المُطِلِّ على "دبي"، مختلطة بها، وبتوهُّجها ورائحتها القوية.

بقي "عبُّود بو راسين" يحاول منذ أوَّل محادثة بينهما، أن يفهم استغراب شَمَّا من غياب رائحته، لم يفهم في حقيقة الأمر معنى أن تكون لكَ رائحة جسد مختلفة عن أجساد الآخرين؛ لأنه يشمُّ في الأجساد المحيطة به روائح هي خليط بين العَرَق اللاذع والعطور العميقة النفَّاذة، وأحياناً البخور من ملابس بعضهم أو البهارات من أجساد وملابس أُخَر، لم يكن له بعدُ أن يفهم سطوة الرائحة وتأثيرها في "شَمَّا"، لكنه ابتهج لكونها تلاحظه في نطاق آخر غير رأسه الكبير، على رغم أن أوَّل ما لاحظه فيها هو حجم أنفها المختلف عن الأنوف الرفيعة لسلالة "آل التوابل"، كان أكبر وأعرض، ورأسها! حسناً، كان رأسها أيضاً كبيراً بعض الشيء، ليس بحجم رأسه بالطبع، لكنه اعتقد بأن من اللطيف أن يشاركه أحدٌ هذه المزِيَّة أو اللعنة، التي لم تكن لتُؤثِّر في حياة "شَمَّا" في شيء، فأنفها ضَمِن لها المكان والمكانة.

هل يتَّسع رأسكَ لعدد أكبر من الأفكار؟

سألتْهُ في حوار آخر بينهما، وهو يجزع من اقترابها الشديد منه لتلمُّس رأسه، كانت تحاول أن تعالج جهلها باللَّمْس، لعلَّ اللمسة تنقل إليها شيئاً ما، ارتبك أوَّل الأمر، لقد كانت لمسةً غريبة، فضوليةً

فظَّة وناعمة في الوقت ذاته، لكنه لم يحرِّك رأسه مبتعداً، واستغرق في التفكير بعض الشيء محاولاً من جديد أن يفهم سؤالها أو المغزى منه، لكنها لا تسخر منه كالآخرين، هذا ما تقوله له هذه اللمسة الغريبة بالتأكيد.

حسناً، أنا لا أعلم، أنا لا أعرف عدد الأفكار في رأس أحدٍ، فكيف أعرف الأكثر أفكاراً منِّي ومنهم؟

أجابها، وأراد وقتَها أيضاً أن يقول لها إنه لم يستنكر لمستها أو ملاحظتها المبطَّنة المرتبطة بحجم رأسه، هَمَّ بالحديث، لكن والدتها نادتْها مِن بعيدٍ فهرعت إليها.

ومرَّة بعد أخرى، حواراً بعد آخر، وجد أنه ينتظرها، يتقصَّد تقاطُع الوقت بينها وبينه، وأراد أن يستفهم منها عن أمر الرائحة، وأن تعاود لمس رأسه كأنها تُبرِّك عليه، وسُعدت هي لذلك في بادئ الأمر، كأنها وجدت فيه "عزيزاً" آخر، دافئاً ومهتمّاً دون رائحة الخوف الحامضة، وظلَّ استغرابها يكبر مع اقترابها منه أكثر، وهي تسأله عن البحر كفكرة، ويسألها عن رائحته، تحاول أن تُقنعه بالاقتراب من الشاطئ، لكي يستطيع أن يشمَّ من القرب ما تستطيع هي أن تميِّزه من أيِّ موضع كانت فيه، لكنه إذا اقترحت ذلك يتذكَّر حفل الاستنقاص الذي سينال منه هناك، حيث الصِّبيَة المتأهِّبون لمغامرة البحر القريبة، ولم يرد لها أن ترى ذلك .. لقد كان يهتمُّ بصورته أمامها، لم يعلم لماذا .. لكنه لا يريد منها تحديداً أن تشهد أيَّ موقف من ذلك، فتبتعد أو تراه كما يرونه .. يتذكَّر آخِر اقترابٍ له من الشاطئ، قبل أن يختار التمركز

في طُرُقات السوق البعيدة عنه، لاحظه أحد الصِّبيَة، فراح يقذفه بحصى البحر، ثمَّ أصبح الصِّبيَة كلّهم يفعلون الأمر ذاته، يتراهنون على مَن له أن يصيب رأسه الضخم من أبعد مسافة، كان يخاف دائماً من فكرة أن يقرِّر أولئك الصِّبيَة أن يتركوا تمركزهم في الشاطئ استعداداً لرحلاتهم الخاصَّة بهم على السفن المغادرة للغوص أو للتجارة ليلحقوا به بسخريتهم إلى داخل السوق.

أنتَ لا تعرف البحر إلَّا كفكرة.

سأكتفي بوصفكِ لرائحته.

هل أنتَ خائف؟

هل تشمِّين فيَّ رائحة الخوف؟

لا .. أنا لا أستطيع أن أشمَّ منكَ شيئاً أبداً.

ألَا تقولين إنكِ تستطيعين أن تميِّزي رائحة الخوف أيضاً؟

أعرفها، لكنني لا أعرف هل لكَ رائحة قريبة منها أو لا.

أصبحا مراهقَيْن معاً، كانت "شَمَّا" الاستثنائية، والوحيدة التي لم تُؤمَر بالاختفاء بعد أن بلغت السنَّ المفترضة للتواري والفصل بين الرجل والمرأة في المجتمع التقليدي، بقيت مرئية، مذكورة، معروفة، وَفْق قوانين السوق، تختبر الطُّرُقات والروائح بحُرِّيَّة؛ وهذا جعل "عبُّود بو راسين" يراها أكثر، فلم تعد تنشغل مع الفتيات الكبيرات في تجمُّعاتهنَّ خلف الأسوار التي تُعِدُّهنَّ ليصبحنَ زوجات لأوَّل طالب،

والصغيرات الباقيات كنَّ أصغر من أن تصحبهنَّ في جولاتهنَّ الحيوية بين السوق وطُرُقات الأحياء، منحهما ذلك مجالاً أوسع ليتعارفا، حَلَمَ بها ذات ليلة وهي تقوده نحو البحر، حيث تجمّع الصِّبيَة الكبار الذين أصبحوا مراهقين معه بدورهم، لكن أحداً لم يستطع أن يسخر منه أو يقذفه بالحصى؛ لأنه كان بمَعِيَّة "شَمَّا" سيِّدة الروائح الوحيدة التي اعترف بها "آل التوابل" بين رجالهم، صحيح أنها لم تستطع أن ترافقهم في أيٍّ مِن رحلاتهم على السفينة، لكنها على اليابسة، وعلى رغم حسرتها المقيمة، راحت تصنع صيتاً مهيباً، جعل أولئك الصِّبيَة يهابون أن ينالوها بأيِّ كلمة انتقاص قد تُغضِب منهم حفيدة "جبَّار" التوابل؛ فهذا يعني حرمانهم من مكان ممكّن لهم على إحدى سفنه التجارية.

يتذكَّر في حُلْمه ذاك أنه قال لها لمَّا وصلا إلى حدِّ الماء الذي عجزت هي عن الخوض فيه إنه سيصنع لها سفينة، وسيحملها فيها لتجتاز اليابسة إلى ما هو أبعد، فقد أصبح رجلاً، ويمكنها أن تثق بقدرته على ذلك.

لقد أصبحنا نقضي وقتاً أطول معاً، أليس هذا الوقت كافياً لكي تُدركي رائحتي؟

لا أعتقد.

لماذا؟

لأنني لا أزال لا أدرك فيكَ أيَّ رائحة.

لعلَّ الحلَّ يكمن في أمر آخر.

ما هو؟

أن ... أن .... أن نتزوَّج.

ضحكت "شَمَّا" في بادئ الأمر، متوقِّعةً أن يقابلها هو بالضحكة ذاتها، لكنه بقي يتأمَّلها باندهاش صامت، لقد كان جادّاً .. شعرت بأنها كَمَنْ وقع في مأزق، عالجت الضحكة بابتسامة متحفِّظة متحرِّجة، كيف لها أن تثق بمَنْ لا تعرف رائحته بعد؟ هي لا تعرف أكان عليها أنْ تحبَّه أم أن تخاف منه، أن تحذر أم تقترب، أن تميل أم تنفر، على رغم شعورها بالدفء أحياناً، إن الحَيْرَة التي يورثها إيَّاها حضوره كانت تتعاظم على نحوٍ أربكها وأشعرها بالعجز في مواضع كثيرة، خصوصاً في الأيَّام التي تُصرُّ فيها على التفكير في أمر رائحته الغائبة، فيتبدَّد الدفء الذي أحسَّت به سابقاً، لتشعر بأن حضوره حولها بمثابة القيد الذي سيُعطِّل فيها تلك القدرة الاستثنائية، ثمَّ ماذا لو تزوَّجتْهُ، وأنجبا صغاراً لهم الرائحة الغائبة ذاتها؟ كيف ستشعر نحوهم؟ هل سيكون لها أن تفهم معنى الأمومة المفترضة؟ تتذكَّر أنّ أُمَّها قالت لها مراراً إن أوَّل ما أحبَّتْهُ فيها وفي "عزيز" هو الرائحة الخفيفة التي انسلَّت من أجسادهما الغضَّة لمَّا مسَّتْهما، قالت ذلك عندما حاولت شَمَّا أن تشرح لها فكرة أن لكلِّ جسد رائحة تميِّزه، لتُقرَّ لها والدتها بذلك، هي لا تعرف رائحة الأجساد كلّها كابنتها، لكنها تميِّز رائحة الطفلَيْن اللذَيْن أنجبتْهما حتماً، ثمَّ ماذا لو أتى الصغار برؤوس ضخمة؟! كالماثل أمامها، هل سيعني

ذلك نسلاً من سلالة الأفكار المتَّسعة في الرؤوس أو العار؟ حاولت أن تفكِّر سريعاً في إجابة وهي تنفض أفكارها المتفاقمة، ماذا لو وضعَت شرطاً؟

قد يُفلح الأمر، لكنْ، بشرط.

ما هو؟

أن تقترب من البحر بما يكفي.

لكنْ ...

عرف "عبُّود بو راسين" بحدسه الذي أتاه هذه المرَّة من قلبه الذي تضخَّم من شعوره نحو "شَمَّا"، أن هذا الشرط بمثابة رفض مبطَّن، فإن حدث واقترب من البحر لينال إعجابها، فسرعان ما سيتبخَّر الإعجاب إذا لمحه الصِّبيَة الكبار على الساحل، ليأتوا إليه محمَّلين بسيل سخرياتهم والألقاب المخزية، ثمَّ إنه خجل من أن يُخبرها عن الحُلْم وإمكانية أن يقترب من البحر لو أنها أمسكت بيده، وجعلتْهُ تحت حمايتها، التفكير في الطلب وحده يجعله يؤكِّد أنها في موضع القوَّة، في طبقة أعلى من طبقته التي لم يعرف عنها شيئاً يميِّزها، فقد كان آتياً من سلالة عوائل المهمَّات الثانوية، التي تساعد العوائل الكبيرة بين الساحل والبحر والسوق، لا تتفرَّد بالمركز أبداً، ولا يشار إليها بالبَنَان، يشعر بالخزي أحياناً كلَّما تذكَّر أن ما قد يميِّز عائلته أخيراً دون أن يرفعها من طبقتها الدونية هو رأسه الضخم، طأطأ رأسه الثقيل يومها ومضى، ترك كلاهما الفكرة معلَّقة .. تكرَّر

حُلْمه مراراً بعدها مع مرور السنوات وتنامي المسافة بينهما بعد ذلك الطلب، دون أن يتجاوز الأمر وعداً باهتاً في الحُلْم لم يتحقَّق على أرض الواقع، حتَّى وقعت حادثة انقلاب الموازين التي لم يكن لأيٍّ أحد من أهل الساحل أو السوق أن يتخيَّلها.

شيريهان

أدنبره - أسكوتلندا، العاشرة صباحاً

كانت تشعر بغضبٍ لا يتبدَّد

وبوَحْدة لا تضمحلُّ

لم تفهم الأمر، تشعر أنها على المحكِّ بشكل دائم، وبأن كلَّ ما حولها موشك على النهاية، نهاية تستشعرها، ولكنْ، ليس لها أن تُدركها، حتَّى وهي في هذا المكان القَصيِّ، حيث نجحت خطَّتها.

تشعر بغضبٍ لا يتبدَّد

وبوَحْدَة لا تضمحلُّ

تريد أن تختبر شعور الامتلاء، ذلك الشعور الرغيد بالرضا والاستكانة، أن يغادرها هذا الشعور بالفوران، وأن تشعر بأنها رَقْم في زحام الحشود، وأنها جزء من الحشود ومعها، لكنها ما تنفكُّ تشعر بأنها مجرَّد حالة فردانية عائمة، وكيان هلامي شبه مرئي، تفكِّر الآن في أنها قد تكون شبحاً من حياة قديمة أراد أن تتحقَّق له أُمنيَّة أن يصبح كائناً حَيَّاً بكتلة ماديِّة في يومٍ ما، لكنه اكتشف المأزق من خلالها، كانت الماهية الشبحية أشدَّ رسوخاً، تقف كثيراً لتتأكَّد أن لها ظلاً يتبعها، أو تتجمَّد في حالة تأمُّلٍ طويلة لظلِّها الذي يتقدَّمها، تريدُ أن تتأكَّد أنه حقيقي، وأنها حقيقية معه بالضرورة.

تشعر بغضبٍ لا يتبدَّد

وبوَحْدَة لا تضمحلُّ

تتأمَّل العابرين بين يدَيْها، بوجوههم الشديدة الشحوب، لا تمرُّ أعراق كثيرة حولها كما هو الحال في مدينتها البعيدة الآن، لهم هيئات شبحيةٌ تفوقها في الهلامية الظاهرة، وتشعر كأنهم لا يعبرون بعضهم بجانب بعض، بل يعبرون من خلال أجسادهم، واحدهم خلال الآخر، دون أن يهتزَّ لأحدٍ جفن أو يُربكه ذلك، ثبَّتت كاميرا هاتفها على وضعية التصوير وهي تمشي مرَّة، أرادت أن تتأكَّد من كونهم كائنات حقيقية، قبل أن تدير الكاميرا على وجهها لتتأكَّد من وجودها كذلك.

تشعر بغضب لا يتبدَّد

وبوَحْدَة لا تضمحلُّ

ماذا لو نهضَت الآن دون أن تدفع حساب فنجان قهوتها؟! هل سيتنبَّه النادل إلى ذلك، هو الذي لم يتكلَّف عناء أن ينظر إليها وهو يتلقَّى طلبها في سرعة؟! وعلى رغم أن المقهى في هذا الوقت من النهار يكاد يكون خالياً إلَّا أنه كان مُشتَّت الذهن أمامها، لكأن الضجيج في رأسه مستقرّ ودائم. لم تعرف في تلك اللحظة أغاضبة هي من إمعانه في تأكيد هويَّتها الشبحية الوحيدة لها، أم أنه غضبها المقيم الدائم تجاه كلِّ شيء وكلّ أحد تقريباً؟!

تشعر بغضب لا يتبدَّد

وبوَحْدَة لا تضمحلُّ

تشعر برغبة في العطس، فتلامس دون شعور أرنبة أنفها كأنها ترغب أن تعيد العطسة إلى الداخل، تفكِّر: لو نظر النادل إلى وجهها، هل له أن يفكِّر بأن لها أنفاً لا يتناسق مع بقية تفاصيل وجهها؟ ودَّت لو أن تناديه لتسأله عن ذلك الآن، لكنها انشغلت بفكرة الوَحْدَة المتصاعدة، لم تعرف ما الذي يجب أن تشعر به حيال هذه الوَحْدَة، هي راسخة كغضبها، ولا تعرف أيّهما يذكي نار الآخر، أهي غاضبة لأنها وحيدة أم هي وحيدة لأنها غاضبة؟ تتذكَّر وجه زوجها وهي ترفض بإصرار أن يرافقها في رحلة دراستها، أرادت أن تختلي بنفسها، أن تتأكَّد من حقيقة ما تشعر به من وَحْدَة، وهي وحيدة حرفياً وغريبة في بلادٍ باردة وبعيدة، وأدهَشَها فعلاً أنه الشعور الراسخ ذاته، سواء أكانت وسطهم في العائلة، أم معه، زوجها .. ز و ج ه ا، تفكِّر في الأمر وتكاد تضحك من غرابة الفكرة، إلَّا أن طيفاً غريباً من الحَنَق ظلَّ يدور بخَلَدِها كلَّما عادت لتستوعب الأمر.

تشعر بغضبٍ لا يتبدَّد

وبوَحْدَة لا تضمحلُّ

تستطيع أن تميِّز رائحة البنِّ والمخبوزات الطازجة، ورائحة العطر القوية الآتية من النادلة الأخرى الدالفة للتوِّ، والتي تضحك الآن مع النادل الذي أولاها انتباهه الكامل فور دخولها، كانت شديدة الشحوب كالآخرين، لكنْ، لها أيضاً حِدَّة الملامح كعطرها الحادِّ، ميَّزت في العطر مزيجاً من الباتشولي والبنفسج، مزيجٌ غريب لم تتخيَّل أنه

قد يظهر منسجماً في رائحة العطر النفَّاذة هذه، راحت تفكِّر بأن هذه الرائحة غير التقليدية هي وسيلة هذه الفتاة للتحايل على هيئتها الشبحية، وفكَّرت لو تسألها: هل ساعدها ذلك حقًّا؟ ثمَّ أثار حَنَقَهَا بشكل مضاعف عمَّا هو معتاد أن النادل المشتَّت أولاها انتباهه الكامل، شعرت بالتمييز القهري، وبشعور آخر مرتبك ومُربِك، قد يكون هو شعور الغَيْرَة، قالت لنفسها: لكنْ، هل لنا أن نشعر بمثل هذا الشعور تجاه كائنات عابرة؟ لم تعرف بعدُ أهذا هو المقهى الذي تريد أن تحوِّله إلى مكانها اليومي خلال الفترة المقبلة؟ كانت في الحقيقة تبحث هنا عمَّا كانت تبحث عنه هناك، عن مقهى يحاذي مَقْبَرَة، انتشت لفكرة أنها ستستطيع أخيراً أن تدخل مَقْبَرَة دون تحفُّظ، وأنها لن تبقَى بمحاذاة سُوْرِها كما هو الأمر هناك، وأن أحداً لن يمنعها من ذلك بدعوى "الحرام"، في الحقيقة، لا وجود لسُوْرٍ فعلي حول المقابر هنا، لاحظت في طريقها من المطار نحو سكنها الشواهد التي لاحت مرَّات كثيرة بشكل عشوائي، في رقعات عشبية مهندسة بطريقة مربَّعة الشكل غالباً، لقد بدا لها أن سُوْر المقابر هنا هو الهواء الحُرّ وأنّه لا أحد ممنوعٌ من أن يكون في الداخل، كأن الأموات جزء من الحياة اليومية للمكان حتَّى بعد رحيلهم الممتدِّ، يا تُرى، ما الذي قد يقولونه لها؟ وبأيِّ لغة لهم أن يباشروا الحديث معها؟ شعرت بغضبها يهدأ وهي تفكِّر بموعدها الوشيك مع الموتى، موعدٌ أجَّله تعبها ونومها الذي امتدَّ ساعاتٍ طويلة فور وصولها شديدةَ الإنهاك، لكنها الآن في قمَّة نشاطها واستعدادها، مستعدَّةٌ للموتى بقَدْرٍ يفوق اهتمامها بالأحياء، أخذ منها النادل الشارد الحساب، وشعرت بأنها تصفح عن هذا الشرود الآن، هي التي يسحبها موعدها المرتقب من

انتباهها ، أخيراً، أخيراً، لن يكون بينها وبين الموتى حاجز، هي الآن محدَّدة الخطى وثابتة، تسير باستقامة وسرعة، بقامتها المتوسِّطة وشَعْرها الأسود الطويل الذي تلفُّهُ، وكلُّ ما تريده هو أن تصل إلى هناك، أن تنجو، كان من الغريب أنها فكَّرت بأنّ نجاتها، ستكون في المكان الذي يتجنَّبه الجميع: المَقْبَرَة.

عبرت أخيراً، بخطوة خفيفة لم يتنبَّه إليها أحدٌ من المارَّة في هيئاتهم الشبحية، لكنها عدَّتْها قفزة هائلة بين عالَمَيْن، عبرَت وأضحَت هناك، وسط الأضرحة التي يستلقي تحتها الموتى الراسخون في دارهم الأبدية، حيث لا يعود الزمن مهمَّاً، لا الانقلابات الكُبرى، لا الحروب، ولا نقاط الاستنارة العظيمة التي يمرُّ بها العالم. راحت تتأمَّل الأضرحة وهي تتهجَّى الأسماء المتنوِّعة بصمت، وتلك العبارات التي نُقِشَت على بعضها، حيواتهم باقتضاب، عبارات مكثَّفة وقصيرة، إلى جانب تواريخ ميلادهم والرحيل بالإنجليزية، توقَّفت لتتساءل بينها وبين نفسها: هل للموتى لغة واحدة بعد الموت، يتشاركها الموتى هناك في دبي والموتى هنا في إدنبره أم هم يحتفظون بلغة ألسنتهم التي عرفوها في حيواتهم؟ كان أمراً تمنَّت لو يملك أحدٌ من المستلقين تحت الأضرحة أن يُجيبها عنه، ما المختلف الذي جعل دخولها المَقْبَرَة هناك مُحرَّماً؟ وجَّهت سؤالها إلى جهة أخرى وهي تناجي نفسها، فهي إذا استثنَت شعور التحرُّر من عبء الروائح الثقيلة لا تشعر بأيِّ اختلاف، شعرت بخيبة أمل خفيفة، فما انتظرتْهُ طويلاً لم يكن كما هو متوقَّع، لا سرَّ حقيقيّ، كانت كَمَنْ يدخل متحفاً، متحفاً للأسماء والتواريخ التي تبدأ وتنتهي دون أن تملك أن تفضي إلى آخر السؤال

الحَيّ الآن بسرِّها، اقتربت من أحد الأضرحة بإصرار، كان اسم صاحبه "توماس وود"، الذي وُلِد في نهاية الخمسينيات وتُوفيِّ في منتصف الألفية مع عبارة مقتضبة تقول: أراد أن يُدفَن إلى جوار "لاورا"، هذا فقط، مَنْ "لاورا"؟ أهي زوجته؟ ابنته؟ أم الحبيبة؟ في الحقيقة لم يكن الأمر مهمّاً الآن، لمسَت شاهد الضريح، أرادت أن تشعر بأمر مختلف، لكن الأمر لم يختلف كثيراً، بقي "توماس" غريباً، وهي عابرة، و"لاورا" بينهما اسم عابرٌ، جذَبَت نَفَسَاً عميقاً، شعرت بأن رائحة العشب باغتَتْها فجأة، وعلى رغم البرودة التي كان من شأنها أن تُجمِّد كلَّ شيء آخر حتَّى الرائحة، إلَّا أنها شعرت بأنها تتنشَّق عشباً ربيعياً طازجاً، كان الرائحة هي الأشدّ توهُّجاً الآن، بنفاذها الذي طغى على كلِّ شيء آخر، لكأنها تريد أن تُطلعَها على أمر لا تستطيع أن تُدركه، أتكون المَقْبَرَة هناك مختلفة؟ أكان للأموات هناك أن يُخبروها بأمرٍ آخر لا يعرفه الأموات هنا؟ لعلَّ الأضرحة هي المشكلة، لعلَّ القبور هي ما يحجبها عنهم بَعد السُّوْر الذي مَنَعَهَا طويلاً هناك، وكلمة "حرام" .. شدَّها شاهدٌ قريب يحمل أحرفاً عربية، مدَّت رأسها لتتأكَّد، فوجدتْهُ فعلاً يحمل عبارات عربية اللغة، توجَّهتْ نحوه لتقرأ بوضوح، كان الشاهد رخامياً، يميل إلى الرمادي، يشبه تلك الأضرحة التي تعود إلى الشرق الأوسط، التي شاهدَتْها مراراً في الصور، في أثناء بحثها المحموم عمَّا يتجاوز سور المَقْبَرَة المحرَّمة، شواهد لا تشبه تلك الرمادية غالباً هنا، لم يحمل الشاهد أيَّ اسم سوى عبارات بدا أنها لبيت شِعْرِيٍّ:

"أَلا عَلِّلَانـــي قَبـــلَ أَن يَأتِـــيَ المَـــوتُ
وَيُبنَـــى لِجُثمانـــي بِـــدارِ البِـــلى بَيـــتُ
أَلا عَلِّلَانـــي كَـــم حَبِيـــبٍ تَعَـــذَّرَت

مَوَدَّتُــهُ عَــن وَصْلِــهِ قَــد تَسَــلَّيْتُ
أَلَا عَلِّلَانــي لَيــسَ سَــعْيِي بِمُــدْرَكِ
وَلَا بِوُقُــوفِي بِالَّــذي خُــطَّ لي فَــوْتُ
فَأَهلَكَنِــي مــا أَهْلَــكَ النَّــاسَ كُلَّهُــم
صُرُوفُ المُنَــى وَالحِــرْصُ وَاللَــوُّ وَاللَيْتُ"

وجدت نفسها تخرج هاتفها لتلتقط صورةً للأبيات، على أن تكتشف الشاعر لاحقاً، أيكون صاحبُها هو صاحبَ الشاهد؟ قد يكون! .. ولكنْ، لماذا لا يحمل الشاهد اسماً؟ أيكون قد اكتفى بالأبيات دلالةً على هويَّته؟ ربمَّا! توقَّفَت بجمود أمام الشاهد، حدَّقَت طويلاً في الأبيات وقرأتْها مراراً، أرادت أن يقول لها شيئاً عن السرِّ الذي قصدَتْهُ لأجله، لكنْ، لا شيء، لا شيء مطلقاً سوى الصمت والبرودة وأصوات الخطوات الخفيفة العابرة حول المَقْبَرَة المفتوحة، تشعر بأن المدينة حولها تتحرَّك، وبأنها وحدها المعطَّلة مُراوِحةً بين العزلة والغضب، ودَّت لو تستطيع الآن أن تُفكِّك الأسى، تراه كمزيجٍ تساوَت فيه مقادير الحزن والخيبة واليأس، ثلاثةُ ألوانٍ في زجاجة شفَّافة، كتلك الزجاجات السياحية التي تحوي ذرَّات رملٍ ملوَّنة من المكان المُرتحَل إليه، وكما أن مَنْ يتأمَّل تلك الزجاجات قد ينجذب إلى لون بعينه، فإنّ ما يتضخَّم في المُتأسِّي هو شعورٌ من الثلاثة دون غيره، حتَّى لَيكون الأسى لبعضهم حزناً هائلاً أو خيبة متعاظمة أو يأساً عملاقاً، وفي حالتها الآن سطعت الخيبة، تنهَّدت، ترسيخاً لخيبتها، وأملت أن يكون الحلُّ أن تقترب أكثر من الأجساد الهامدة، لعلَّ الإجابة تأتي متى اقتربت من الجثث، لعلَّها تسمع أصواتهم الخفية، نعم! فكَّرت وانتشت واستعادت حماستها، للغد، لليوم الأوَّل.

خرجت من هناك في تمشية طويلة في المدينة، تاهت بين الأجساد وأفكارها، والروائح النافذة إلى كلِّ شيء مضاعفة عليها كما هي العادة، شعرت بغضبها يستعر من جديد، راح يختار وجهة جديدة الآن، شعرت بأنه يتوجَّه نحو المكان الذي لطالما تلاشى عنده سابقاً، عند المَقْبَرَة، تلك التي لم تقدِّم لها شيئاً يُذكَر بعد سنوات الانتظارات الطويلة، تأمَّلت كفَّيْها، شعرت بأنها تتنشَّق منهما رائحة التربة القوية، تلك الرائحة التي تحفظها منذ طفولتها وهي تَحفِر عند سور المَقْبَرَة، الرائحة الحميمة من الذاكرة تخنقها الآن، وتؤكِّد لها خيبتها، عادت إلى شقَّتها التي اختارتْها قريبة من الجامعة، آثرت ألَّا تكون في السَّكَن الجامعي مع الجموع، ثمَّ عدد كبير من الأحياء والروائح والتفاصيل، ومؤكَّدٌ أنها لن تحتمله. صفقت الباب مُغلِقةً إيَّاه بغضبها المتنامي، وبكلِّ الخيبة التي أوجبت ذلك.

استلقت على سريرها في ليلتها تلك، تجمع الغضب بالحزن، كانت الخيبة تتعاظم أيضاً، ماذا لو لم يوجد شيء هناك حقَّاً، ولم يكن العدم إلَّا عدماً فقط، دون أيِّ معنى؟ شعرت بأنها مجرَّد طفلة محرومة من إشباع فضولها، وأحسَّت بسذاجتها وغبائها معاً، وداهمها شعورٌ عارم برغبة البكاء، فأطلقت العِنَان لنفسها وبكت، بكت طويلاً وبمرارة غير مفهومة، حتَّى رأت نفسها تتهادى على دمعةٍ عملاقة تشكَّلت على هيئة قارِب، ميَّزت أنها دمعة من الرائحة المالحة والقوام الذي يشبه دمعها تماماً، كانت الدمعة الشفَّافة تعزلها عن ماءٍ شديد الزُّرْقة، ومن البعيد رأت الساحل، كان يبدو مهجوراً، لا بيوت تصطفُّ محاذاته، إلَّا أنها كلَّما اقتربت أبصرت شواهد كثيفة، مرصوفة بانتظام،

وعندما اقتربت أكثر راعها أن الشواهد التي لمَحَتْها لم تكن كما هي الشواهد التي رأتْها في يومها ذاك، بل كانت بمثابة رؤوسٍ حجرية مصقولة وهائلة، تصطفُّ بنصف إغماضة وملامح تعب، رؤوسٌ مستسلمة وأخرى هلعة، انتهت بها الدمعة إلى هذا الساحل المرعب وتلاشت، فوجدت نفسها بين الشواهد، تقترب أكثر فأكثر، كانت في وسط الموت الآن، لكنها، بدلاً من أن تطمئنَّ، شعرت بالخوف، راحت تفتِّش عن أثر للحياة عندما تناهى إلى مسامعها صوتٌ يغنِّي:

"رحنا السفر
والموج يانا جبال
في غبةٍ منها المنايا
قريبة"

أرهفت السمع واقتربت.

أرادت أن تكتشف مَكمَن هذا الصوت الحَيّ، لكنها كلَّما ظنَّت أنها تقترب من مصدره شعرت به يبدِّل مكانه، بين الشرق والغرب والشَّمَال والجنوب، أنهكها الارتباك وشعرت بغضبها يعود ليتفجَّر، أرادت أن تصرخ، لكنها تنبَّهت إلى أنها لا تستطيع أن تحرِّك فمها، وضعت يدها على فمها، فوجدتْهُ غائباً، شعرت بغضبها المكتوم يتضخَّم، قبل أن تُباغتَها لكزة لطيفة على كَتِفِهَا، التفتت جزعة، فرأت فتاة ضئيلة الحجم، سمراء، يكاد يكون لها لونها ذاته، فتاةٌ بعينَيْن واسعتَيْن وفم يشبه فمها هي، بل هو فمها بعينه، لكنها في المقابل لم تكن تملك أنفاً، حرَّكت الفتاة يدها محاوِلةً أن تلمس أنفها هي،

لكنها تحرَّكت مبتعدة عنها، لم تُرِد أن تلمسها، تأمَّلَتها الفتاة بعينَيْن خاضعَتَيْن مُتحجِّيَتَيْن، وضعت يدها على فمها، قبل أن تشير إلى موضع فم "شيريهان" الغائب، ثمَّ حرَّكت يدها على موضع أنفها الضائع، لتشير إلى موضع أنف "شيريهان"، وكأنها تريد المقايضة، أمنحكِ الفم وآخذ الأنف، هزَّت رأسها رافضةً بقوَّة وراحت تركض، وهي تتلفَّت خوفاً من أن تَتْبعها، وجدت نفسها تركض بين الرؤوس الحجرية، وبقيت الفتاة الصغيرة بعيدة، والأهزوجة نفسها على لسانها تتضخَّم بصوت غاضب وهادر.

"رحنا السفر
والموج يانا جبال
في غبةٍ منها المنايا
قريبة"

صرخت

صرخت عالياً

ثمَّ استيقظت هلعة، تحسَّست موضع فمها فوجدتْهُ، ولم تدرِ لماذا كان أوَّل ما فكَّرت به في آنِها أن تلك الفتاة هي "شَمَّا" التي أتت جدَّتُها على ذِكْرها قبل سنوات، كان شعوراً يقينياً مبهماً، لا بدَّ أن تكون "شَمَّا"، لكنها في الوقت ذاته لا تزال لا تعرف مَنْ تكون هذه "الشَّمَّا" الغامضة؟

في غَدِها، قصدت المقهى ذاته، كان النادل شارداً كعادته، لكنها

تخلَّت عن غضبها منه، كانت مرتبكة، تفكِّر في الفتاة في الحُلْم، وفي والدتها التي أجابتْها بصوت بعيد وواهنٍ وهي تهاتفها لتسألها عن هذه الفتاة، لم يبدُ صوت أُمِّها غاضباً من السؤال، لكنها اكتفت بصمتٍ طويل، قبل أن تقول لها: إن عليها أن تنشغل بما ذهبت لأجله، ولا إجابة تفيد. إجابة أُمِّها الغامضة جعلتْها تريد أن تعرف أكثر، تريد أن تفهم مِن أين أتت هذه الفتاة وإلى أين ذهبَت، ولماذا عادت لتزورها في حُلْمها، كانت تودُّ لو أنها منحتْها في الحُلْم أنفها، لربمَّا تكلَّمت آنَها لتخبرها بالحكاية الكاملة، فكَّرت بشقيقها، هل تسأله؟ لكنها منذ أتت إلى هنا هاتفتْهُ مراراً دون إجابة منه، كان الثقل الذي أورثه إيَّاه عمُّهما المتوفىَّ يوحي بأنه آخذٌ في الابتعاد والاضمحلال، وقد اعتادت هي ذلك، لكنها تفتقده، تفتقد أحمد الخفيف على رغم النأي المتراكم بينهما، أحمد الطويل، المحلِّق، سيِّد الإجابات، الذي لم يكن متوجِّساً منها ومن أفكارها وخواطرها وأسئلتها، تنهَّدت، قد يكون عليها فعلاً أن تنشغل بما أتت لأجله، عليها أن تجد إجابتها الكبرى، والاقتراب الشديد من الأموات قد يمنحها ذلك، من أجسادهم التي لم تُوارَ التراب بعد.

تنبَّهت إلى أن وقت توجُّهها للجامعة قد حان، الموعد المنتظر بعد سنوات من الدراسة هناك، ها هي ذي ذاهبة إلى قَدَرها المنشود هنا، قد يكون الحلُّ في أجساد الموتى، لا في مواضع دفنهم. اليوم، اليوم يحين أوَّل موعد لها قريباً من الأجساد التي سيُشرَّح أحدها أمامها، كما رأت في الخطَّة التحضيرية الأولى التي بُعثَت إلى الطلَّاب عبر البريد الإلكتروني.

كانت الممرَّات باردةً في طريقها نحو شغفها المنشود، لكنها شعرت بقلبها طافحاً بالحرارة، وجسدها كذلك، تجاور الزملاء الجدد يتقدَّمهم الطبيب المسؤول وصولاً إلى المشرحة التخصُّصية، كانت الغرفة مظلمة وباردة أيضاً، قبل أن يضيئها الطبيب، ليشعَّ الضوء الأبيض الساطع بالتوازي مع رائحة الفورمالدهيد القوية وتوهُّج الجدران البيضاء، شعرت "شيريهان" بتأثير الرائحة مضاعفاً عليها على رغم الكِمَامَة السميكة البطانة التي ارتداها الجميع، رائحة غريبة تمزج بين المطهِّرات المألوفة بتركيز أقوى ورائحة مبهمة شعرت بأنها كرائحة الماء، رائحة ماء نهرٍ من مكان في ذاكرتها لم تستطع أن تميِّزه الآن، حاولَت أن تتذكَّر هل رأت نهراً في الماضي البعيد؟ لكنها لم تُفلِح، حوَّلت تركيزها نحو الأجساد المسجاة حولهم، مغطَّاةً بشراشف بيضاء، شعرت بأنهم لو لم يكونوا يرتدون النظَّارات الواقية لشعروا بأن الإضاءة والرائحة تتمازج في سطوعها مع الشراشف البيضاء. اقترب الطبيب المسؤول من جسدٍ في أوَّل الصفِّ الأُفقي، ورفع الغطاء الأبيض بشكل نصفي، وجدت نفسها تتخلَّل الأجساد الحَيَّة حولها بهدوء، لتقف في الصفِّ الأوَّل، أرادت أن تقترب من الموت ما استطاعت، لقد كان أمامها أخيراً في هذه الجثَّة، التي كانت لشابٍّ في منتصف الثلاثينيات من عُمُره كما يبدو، بوجه تعتريه ملامح الدهشة الخفيفة، وعلى رغم أن العينَيْن كانتا مغلقَتَيْن وهما أوَّل ما قد يكشف عن التعجُّب الغامض إلَّا أنها استطاعت أن تستشعر تلك الدهشة، على نحوٍ غريب عكَسَه الفم الذي نَمَّ عن شهقة خفَتَت وتركتْهُ مواراباً إلى جانب الحاجبَيْن المرتفعَيْن المتعجِّبَيْن بعض الشيء، كان رأسه بيضاوياً وأصلع، وكشف الحاجبان المندهشان مرَّة أخرى أن شَعْره

كان أشقر، الجسد ضئيل، لكأنه جسدٌ قد حُرِم من الطعام طويلاً، بعظام صدرٍ ناتئة، اعتلاها جِلْدٌ شديد الشحوب إلى الدرجة التي قرَّبتْهُ إلى البياض، هي تدرك أن هذا البياض هذا ليس طبيعياً بفعل التحنيط، وملاحظتها الأخيرة تلك قطعها صوت الطبيب المسؤول:

هذه جثَّة طازجة، شحوبها غير طبيعي مقارنة بجثَّة لم تُحنَّط بشكل كامل بعد، وددتُ أن أبدأ بها معكم.

أيكون هذا بياض الدهشة إذن، بياضُ انسحاب الدم المباغت من العروق؟ تساءلت "شيريهان" مع نفسها، لا بدَّ أنها دهشة كبيرة، أيكون قد مات بسببها؟

في البداية .. دعونا نتحدَّث عن سبب الوفاة، ما هو تحليلكم؟

تجاوب الطلَّاب مع الطبيب المسؤول بإجابات متنوِّعة، بين المخدِّرات بجرعة زائدة، والاختناق، قبل أن يحسم الطبيب الأمر:

الانتحار، لقد قضى هذا الشابُّ منتحراً بكمِّيَّة من العقاقير المنوِّمة التي تناولها في وقت واحد.

همهم الطلَّاب فيما بينهم، واندهشت هي، إذا كان قد قضى منتحراً قاصداً الموت، فلماذا تتبدَّى عليه هذه الدهشة؟ إنه أمرٌ شديد الغرابة لها، ثمَّ إذا كان قد تناول حبوباً منوِّمة، فلماذا لا تظهر عليه أماراتُ النائم بسلام؟

هل كانت عيناه مُغلقَتَيْن عندما عُثر عليه؟

سؤال جميل؟ ما اسمكِ؟

شيريهان.

شي .. She ... ماذا؟

يمكنكَ مناداتي "شي".

حسناً ذلك أسهل بالتأكيد، سؤال جميل يا آنسة "شي"، على الطبيب الشرعي أن يسأل عن المظاهر الأوَّلية للجثَّة دائماً، وعمَّا تغيَّر خلال نقلها إلى هنا، عن أيِّ شيء مهما بدا عابراً؛ لأنه قد يكشف أشياء كثيرة عن هذا الجسد الذي لن يستطيع صاحبه أن يخبركَ عمَّا أصابه بالضبط، وبالعودة إلى سؤالكِ تحديداً يا "شي"، إن عائلة الميت عندما عثرت عليه رأت أن عينَيْه كانتا مفتوحَتَيْن على اتِّساعهما، كان كالسمكة النائمة بعينَيْن مفتوحَتَيْن، لعلَّ مضاعفاتٍ حصلت له في أثناء النوم، قد يكون استيقظ لمرَّة أخيرة قبل أن يرحل كلِّيًّا.

إذن كان توقُّعها صحيحاً، اكتملت صورة الدهشة في ذهنها، لكنْ، لماذا هذا الشعور تحديداً ما دام قد اختار الموت؟ هل اكتشف شيئاً خارقاً في لحظته تلك؟ هل ندم؟ هل أراد أن يتراجع، لكن الوقت كان قد فات وأدهشه ذلك عندها؟ غرقت في أفكارها حتَّى تحرَّك الطبيب المسؤول نحوها بقامته الممتلئة نسبياً ورأسه المستدير الذي يعلوه شَعْر فضّيّ غزير، حدَّق فيها ملياً بعينَيْه الفاتِحَتَيْن وهو يكرِّر كلاماً لم تتبيَّنه في البداية في أثناء استغراقها في الأفكار ..

إذن .. آنسة "شي" هل وجدتِ إجابة سؤالكِ؟

تلعثمت بـ "نعم" خافتة، فعاد الطبيب إلى الخلف، كان يرتدي تحت المعطف الطبِّيّ الأبيض قميصاً رمادياً ذكَّرها بالشواهد التي رأتْها في المَقْبَرَة، وبنطالاً أسود، وارتدت هي أسفل المعطف الطبِّي الخاصّ بها قميصاً وبنطالاً أسودَيْن ناقَضا بياض المعطف، ولفَّت شَعْرها الذي استقرَّ أسفل القبَّعة الطبِّية الزرقاء على شكل كعكة صغيرة، كانت عيناها داكنَتَيْن مقارنة به. قرَّب الطبيب من الجثَّة الهامدة والعارية بشكل نصفي أمامهم عربةَ الأدوات الطبِّية، مشارطَ بأحجام متنوِّعة، مطرقةً طبِّية، شاشاً، وهذا ما استغربَتْهُ شيريهان قليلاً، أينزف الموتى؟

عاد الطبيب نحو جسد الجثَّة، أزال الغطاء كاملاً عن ذلك الجسد الهزيل العاري، شعرت بصمتٍ مكثَّف ضاعفه العري الذي تجسَّد أمامهم، فالعري دائماً هو عنصرٌ حيوي ولو كان لجثَّة، يشعر الطرف المقابل بالتلصُّص، فهو يتأمَّل جسداً لا يعرف صاحبُه أن هناك مَنْ يتأمَّل أدقَّ تفاصيله بقصد، هو مجرَّد من الإرادة مع الحياة بالطبع، وهو ما يمكِّنكَ من تجريده أنتَ من كلِّ ما عدا ذلك أيضاً، ومن ذلك الملابس، تفكَّر هي قليلاً: هل سأل أيٌّ من الأطبَّاء الشرعيِّيْن نفسه سابقاً عن حقِّه في هذا التلصُّص، وفي تطويع هذا العري كيفما شاءت له الإرادة، ألَا يُشعِرُهُ ذلك بالثقل؟ ألَا يشعر بأن له روحاً واحدة لها مسؤولية التحكُّم في جسدَيْن اثنَيْن في أثناء ذلك؟ كانت الوجوه المتحفِّزة حولها نحو خطوة الطبيب التالية مرتبكة قليلاً، لعلَّهم جميعاً يفكِّرون في عنصر التلصُّص ذاك، أطاح الطبيب بهذا الارتباك

الصامت ليحلَّ محلَّه الفضول لمَّا حمل المشرط مقترباً من الساق اليمنى للجسد المسجَّى أمامهم، قائلاً بابتسامة واسعة:

أُحبُّ أن نبدأ درسنا اليوم ونحن نقتبس قليلاً من الدكتور "توليب" ..

اقترب من الفخذ بخفَّة، وبدأ بشقٍّ طولي رفيعٍ ورقيق جدَّاً من الركبة حتَّى أعلى الفخذ، أغمضت عينَيْها وهي تستمع إلى صوت المشرط وهو يعبر اللحم الميت، لا يمكنكَ أن تسمع هذا الصوت بمثل هذا الوضوح مع الأحياء، ستتغلَّب عليه أصوات التوجُّع، أو المباغتة المصحوبة بمحاولات التفادي، ثمَّ الضجيج، حيث سيسعى صاحب الجسد إلى معالجة ما حلَّ به، وإن كان محاطاً بآخرين، فسيكون الأمر جوقةً من الأصوات المتداخلة، ثمَّ الخطوات الراكضة نحو الجرح وصاحبه، لماذا هذا الرعب الهائل من عطبٍ هو حقيقة أكيدة؟ ساءلت نفسها، ووجدت أنها استعذبت الصوت جدَّاً، أحبَّتْهُ كأنه مدخل مُكوَّن من مؤثِّر صوتي حَذِر، لفَهْم لعبة الموت والتماهي مع العدم، عندما فتحت عينَيْها كان الطبيب يزيل رقعة من الجِلْد كاشفاً الأنسجة التي فقدت كثيراً من حيويتها بالطبع، فكَّرت أنه في موضع كهذا أيضاً قد ينزُّ الجرح المصطنع عن بعض الدم أو كثير منه؛ وهذا قد يعيق التأمُّل الطويل في ما خلف بَوَّابة الجِلْد مع الأحياء، لكن الأمر مختلف لدى الميت، تكشَّفت بعدها الأجزاء والأفكار، وراح الطبيب المسؤول يستفيض في الشرح والتشريح، مرَّ الوقت سريعاً، مع المجموعة المكوَّنة من ثمانية طلَّاب وطالبات يغادرون المبنى البارد إلى قسم التشريح ورائحة الفورمالهيد لا تزال عابقة في المكان وفي أنوفهم، وجدت نفسها

في ذلك اليوم تودِّع الزملاء الجدد الذين انصرف كلٌّ منهم إلى شأنه لتقصد مطعماً قريباً متناولة شريحة ضخمة من اللحم بشراهة، لم تفهم، أهي رغبة الحياة في مقابل الموت الذي كان موضوع يومها بطوله؟ لكنها تبحث عنه في التفاصيل، فلماذا تهرب منه؟ تذكَّرت في خضمِّ ذلك ما قاله الطبيب عن محاولة محاكاة الدكتور "توليب"، تناولت هاتفها، كتبت اسم الطبيب، كانت أوَّل نتيجة ظهرت لها هي لوحة تشكيلية لها عنوان "درس التشريح" مع الدكتور توليب، فهمت المقاربة المبدئية، ثمَّ عبرت نحو اللوحة نفسها لتتأمَّلها، لوحة لرامبرانت تعكس جسداً ميتاً شاحباً مسجَّى في المنتصف، وذراعاً مشقوقة بالطريقة نفسها التي شقَّ بها الطبيب المسؤول الساق اليوم، يقف وفي يده المشرط الذي يُكمل به شقَّ الذراع، واقفاً بمحاذاتها، ويتحلَّق حوله مجموعة من الرجال في فضول وتحفُّز مراقبين ما يفعله، فهمَت أنهم طلَّابه، رأت شيريهان أن أناقتهم مبالغٌ فيها لطلَّاب في درس تشريح، أكملت القراءة عن اللوحة، لتكتشف أن دروس التشريح في وقتهم ذاك كانت أقرب إلى احتفاء اجتماعي يستحقُّ الاستعداد له بأجمل الملابس، احتفاء مبطَّنٌ بما هم مقبلون عليه، ذكَّرها الأمر باحتفالات بعض القبائل الأفريقية بالموتى، والأجساد الميتة التي يطاف بها القرية في طقس احتفالي، قد يكون هذا السبب الذي جعلها تشعر بالنشوة اليوم والسعادة التي ربمَّا انعكست في شكل جوع شديد وهي تخرج من الدرس، شعرت بأنها تقترب من هدفها المنشود أخيراً، قد تدرك السرَّ إذا هي اقتربت أكثر فأكثر من الأجساد الميتة.

في ليلتها تلك نامت وهي تبتسم، ابتسامة استمرَّت ترافقها

وهي تحمل ذلك الرأس المقطوع في مدينة غريبة لم تألفها، كان رأساً مشدوهاً، لكنه ليس رأس الجثَّة التي رأتْها اليوم، بشَعْرٍ أسود كثيف، وعينَيْن جاحظَتَيْن ولسانٍ مُتدلٍّ، وعبقت الأرجاء برائحة قوية تشبه كثيراً رائحة الفورمالديهايد، لكنها كانت تجمع في تناقض غريب بين رائحة النظافة الكيميائية المركَّزة والعطونة الحامضة على نحوٍ مُبهَم، فكَّرتْ أنها في غرفة التشريح اليوم لم تستطع أن تميِّز أيَّ شيء من رائحة الأجساد التي حولها، خلافاً لما اعتادتْهُ، كانت تميِّزهم خارج الغرفة بدمغاتِ تعرُّقهم المختلفة، لكنْ، لمَّا دخلوا تلك الغرفة اختفت الروائح كلّها، لكأن أنفها عاد طبيعياً وقتها فاقداً قدرته الخارقة، شعرت بأن خطواتها تقودها على نحو لا تتحكَّم به، كانت لا تعرف إلى أين تتَّجه، لكن جسدها يعرف، موجَّهاً، يحمل ذلك الرأس المشدوه ويتحرَّك بتصميم، وصلت أخيراً إلى نهر، كان نهراً رائقاً، وعلى رغم أن وقت تحرُّكها كان ليلاً إلَّا أنها استطاعت أن تتبيَّن نقاء النهر على رغم العَتَمَة، كان يشعُّ بذاته، تحرَّك جسدها الذي بدا أن له إرادة خاصَّة، وقرَّبت الرأس من الماء، وضعَتْهُ، فراحت ملامحه تتحرَّر من دهشتها، عادت العينان الواسعتان السوداوان إلى طبيعتَيْهما، وتحوَّل الشحوب إلى سُمْرة متوهِّجة، أمَّا الفم، فقد ابتسم والرأس ينجرف مع حركة النهر بعيداً، بادلتْهُ الابتسامة برضا، ثمَّ استيقظت بهلع شعرت به في ذهنها فقط، على رغم أن جسدها كان في حالة من الهدوء والاستكانة، شعرت بأن كلَّ شيء في الغرفة فاض بالرائحة، لكأن الخارج قد استقرَّ بروائحه العشوائية كلّها في غرفتها الصغيرة المكوَّنة من سرير مفرد وخزانة ومرآة طولية، بجانب باب يفضي إلى غرفة معيشة متوسِّطة الحجم بجهاز تلفاز ومكتبة

تصطفّ فيها مجموعة من الكُتُب الطبِّية وكُتُب علوم التشريح ولون رمادي محايد هو اللون ذاته الذي كان للغرفة.

كانت الأيَّام التالية لتلك الليلة من أسعد أيَّامها، شعرت بأن تلك الصغيرة التي كانت تَحفِر عند سور المَقْبَرَة تمكَّنت من حفر النفق أخيراً والتسلُّل داخل المَقْبَرَة، لقد أضحت قريبةً من الموتى، بكامل حضورهم المتجسِّد في فعل الغياب الأبدي، كانت دائماً الجريئة التي تبادر بين زملائها إلى التجريب بعد الطبيب المسؤول مباشرة، تنعزل دائماً عن شؤونهم المرتبطة بالحياة كلَّما حاولوا التقرُّب منها أو حاول أيٌّ منهم دعوتها إلى شيء ما أو مشاركتها بعض تفاصيله أو طلب شيء من تفاصيلها، لقد بقيت لهم "شي" "she"، "هي" المجهولة، ولم تكترث هي كثيراً للتقرُّب منهم، هم أحياءٌ في النهاية، وقد عاشت حياتها فيما سبق ذلك محاطة بكثير منهم، وبالعميق من روائحهم التي كانت تُشتِّت انتباهها دائماً، لكنها تكون مع الأموات في المشرحة مشغولة بالموت، بالجسد وحده، مجرَّداً من الرائحة المشتِّتة، تشقُّ الأجساد باحثةً عن السرِّ الموت المقيم في داخلها، تماماً كما كانت تَحفِر حول المَقْبَرَة لتستطيع أن تقبض على الموت في الداخل. تشعر إذا اكتشفت في أثناء التشريح السبب الصحيح لموت أحدهم كاشفة عن مَلَكَة فريدة ميَّزتْها بين أقرانها، ونبَّهت إليها الطبيب المسؤول أكثر فأكثر، تشعر بأن الموت يُوشوش لها بكلمة من عبارة السرِّ المرتبطة به، وشعرت أيضاً بأن مكانها هنا، بين هذه الأجساد الهامدة، وسط السطوع البارد، حيث تشعر بدفء يقرِّبها إلى سبب وجودها، سبب وجودها الذي تراه يرتبط بالموت، بالتهتُّك

والاضمحلال، إنها خفَّة راحت تُحرِّرها من غضبها الذي كان يستشري فيها دائماً، وهنا يتبدَّد الغضب وتضمحلُّ الوَحْدَة.

بقيت خلال تلك الأشهر الأولى تتواصل باقتضاب مع والدتها التي كانت تبدو مرَّة بعد أخرى كَمَنْ يفقد شيئاً من قوَّة صوته، وكان تواصلها مع والدها فاتراً، وتشعر بأن صوته في كلِّ مرَّةٍ يأتي أخفَّ، خفَّة زادت أكثر بعد وفاة الجدَّة أيضاً، أكانت جدَّتها هي قيد والدها الوحيد المتبقِّي لربطه بالأرض؟ لم تتحدَّث مع شقيقها ولا مرَّة، وتتحدَّث إلى زوجها – أو ذلك الذي يُفترَض أن يكون زوجها بمعدَّل مرَّة كلّ أسبوعَيْن، وبرسائل شبه يومية، عن تفاصيل عابرة، على رغم أنها كلَّما رأت اسمه على شاشة هاتفها شعرت بأنها مُستفزَّةً على نحو ما، لكنها تعالج كلَّ شيء في المشرحة، تتحرَّر وتحلِّق، فيما يراقب الطبيب المسؤول انهماكها الدائم باستغراب وإعجاب.

تجد نفسها بين حين وآخر مواظِبة على الذهاب إلى المَقْبَرَة القريبة، حيث شاهد القبر بالأبيات العربية تحديداً، تقف طويلاً محاوِلةً أن تتعرَّف صاحب هذا القبر المجهول، منتظرةً أن تصادف زائراً لهذه القبر قد يُطلعها على حكاية صاحبه، لكنه كان دائماً قبراً لا يزوره أحد، هي تعرف على الأقلِّ أن الأبيات ليست للميت هنا؛ لأنها بحثت عنها ووجدت أنها تعود إلى أحد شعراء العصر العبَّاسي، شاعر أصبح خليفةً ليلةً واحدة فقط قبل أن يُقتَل، لكنها تعتقد أحياناً بأن صاحب هذا القبر لا بدَّ مِن أن يكون شاعراً بطريقة ما، وإلَّا لما اختار هذه الأبيات لتكون خاتمة حياته، وقد يكون رجلاً كبيراً في السنِّ، الحكمة في الأبيات تكشف عن إدراك مطمئن إلى النهاية،

أليس كذلك؟ تجلس، تشعر بأن الهواء حولها يعبق برائحة تربة مبلَّلة، وتُشعِرها هذه الرائحة بالحزن، تتكثَّف كلَّما اقتربت من الشاهد، هل كان صاحبه شاعراً حزيناً؟ هل دُفن وحيداً؟ ربمَّا، ومع الوقت راحت تحمل معها إلى القبر أزهاراً، شعرت برابط خفي يجمعهما، وأرادت أن تفهم سرَّ هذه الكثافة العميقة للرائحة هنا، هل كانت رائحة الجسد؟ لكن الجسد نفسه لم يعد موجوداً، هي أكثر مَنْ يعرف هذه الحقيقة.

تلمس الشاهد، وتُغمض عينَيْها، ودَّت لو يُخبرها بأيِّ أمر عنه، تماماً كما تخبرها تلك الأجساد التي تشرِّحها وهي تتلمَّس الجِلْد بالكدمات والرضوض أحياناً؛ لتكشف لها عن السرِّ الذي أدَّى بها إلى الموت، لكنْ، لا شيء هنا، الصمت فقط، والخطوات الخفيفة حول المَقْبَرَة، ثمَّ جاءها ذلك الاتِّصال، وقد كان الأمر غريباً عليها عندما رأت اسم شقيقها مُهاتِفاً إيَّاها.

جلست بعد مكالمته وهي تشعر بأن جسداً آخراً أُضيفت كتلته إلى جسدها الضئيل، وبأن روحها الآن تحمل ثقل جسدَيْن معاً، والتربة المبلَّلة التي شكَّلت رائحة الهواء المحيط أضحت في فمها، لكأنها هي التي يُهال عليها التراب، لم تعرف كيف تفسِّر مشاعر قويةً كهذه، حاولت أن تتنفَّس بهدوء واستكانة، رفعت رأسها إلى السماء في نظرة مشدوهة.

مات والدها

نائماً

سكتة قلبية

وكيف للنائم أن يموت مرَّة أخرى داخل موته؟ تشهق وتفكِّر، هل تعتريه الدهشة ذاتها التي تتملَّك المأخوذ بالموت وقت الصحو؟ تتفجَّر دموعها وتنشج، أليس من حقِّ كلِّ حيٍّ أن يكون مُدرِكاً للحظة موته؟ هل كان كابوساً ما أسلمه للموت بعد أن قبض على قلبه بشدَّة وعصَره حتَّى انتهى؟ هل عانى والدها من مرض في قلبه أساساً؟ تريد أن تصرخ وتتماسك، هل كان في حُلْم أسلمه إلى الموت بطمأنينة ومضى؟ ترتبك، تريد أن تستوعب الأمر، وتحاول أن تفكِّك هذه الأسئلة كلّها بثقلها وأساها، إلى جانب أنها، لمفارقة الأمر، لم تكن تعهد في نفسها حزناً مباغِتاً كهذا على رحيل الوالد، الذي كان موجوداً وغائباً في الوقت نفسه .. أيكون تخلِّيه عن صفة الحياة هو ما جعلها تشعر تجاهه الآن بالرقَّة، وبالحزن الغامر، لكونها رقَّة لا تستطيع أن تتشاركها معه؟!

سكتة قلبية

راحت تستذكر الخفَّة التي نطق بها أحمد النبأ عبر الهاتف، وفكَّرت بالتسمية، السكتة القلبية، أخذت والدها بصمت واستكانة، سكتة، أن يسكت القلب فيقرِّر الجسد أن يتعطَّل بكلِّيَّته ويحرِّر الروح، كيف هو شكل روح والدها؟ هل كان يمهِّد طوال الوقت لتلك الاستكانة؟ في صمته وخفَّته التي كانت تتنامى، أكان يُمهِّد لأن يحرِّرها بأكثر الأشكال هدوءاً؟ لكنها لا تعرف هل كان ذلك واقعاً؟ ماذا لو تألَّمَ؟ ماذا لو أن تلك التسمية، وتلك السكتة، مجرَّد مواربة لفظية لتلطيف

الأمر؟ ماذا لو أن صمت القلب يأتي بصراخ الأعضاء الأخرى، التي تلهج وتتشنَّج راغبة في فهم هذا الأمر الطارئ؟ لا بدَّ أن ألماً عظيماً مرَّ به، حاولت أن تعالج تدفُّق الأفكار المتسارعة بأن تُجبر نفسها على التفكير في ردَّة الفعل العملية التي قد يملك الأحياء أن يتصرَّفوا بها في وضع مماثل، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير بوجه والدها، والربط بينه وبين الوجوه التي تراها يومياً في المشرحة، بمَ يخبرها؟ ربمَّا كانت روحها الأنانية هي التي تستيقظ الآن، في محاولة مستميتة للاقتراب من فهم تلك النهايات، تمنَّت أن تنزع الجِلْد لترى ما يخفيه ذلك الجسد الهامد، لو تقلَّب بين يدَيْها قلبَه الذي اختار الصمت فجأة، ماذا كان له أن يقول لها نيابة عن والدها الذي اختار رَفد العلاقة بينهما بحاجزٍ جديد، بعد حاجزَي الصمت والواجب اللذَيْن كانا بينهما دائماً؟

تشعر بأن الهدوء الآتي من تلك السكتة يُفاقِم بداخلها الغضب من جديد، ويُكثِّف على جسدها الثقيل من أساسه مزيداً من الثقل، وتسأل نفسها: لماذا لم تعترها خفَّة والدها التي اعترتْهُ بعد وفاة أُمِّه: الجدَّة؟

عبد الله بن المعتزّ

مكّة - جزيرة العرب، 268 - 274 هـ / 869 - 875م

لقد نجا ابن المعتزّ من النار مرَّتَيْن، ومن الدم مرَّتَيْن، لكنه يشعر الآن بأنه يعيش موتاً مضاعفاً، فما هذه البلاد التي تخلو من الماء؟ ماذا هو صانعٌ فيها؟ كان يشعر بأنه في حالة من العطش الدائم، تكاد تفتك به، وكلَّما أتوا إليه بماء زمزم على سبيل الارتواء، تقيَّأه.

لا دِجْلَة هنا، فلا مقام.

يكرِّر الأمر على جدَّته "قبيحة" وتتشاغل عنه، لحداثة سنِّه وفكرته، لكنه يعرف أنه أكبر ممَّا تعتقد بكثير، وأنه أدرك السرَّ الذي قد يحميه من النار في بلاد النار، لكنها ما تفتأ تذكِّره بالكتلة الملتهبة التي كانت تتبعهما وسط القفار في عبورهما نحو مكَّة، وكيف أنها كادت تأخذه بداخلها، ليصبح منهم، مليئاً بالنار والثأر والغدر، تقول له ذلك كمَن يحاول أن يشرح لطفلٍ في أوَّل طلعته فيغضب، يتعاظم سخطه، ويبصر الوهج يوشك أن يشتعل في الداخل، فيركض في الأرجاء باحثاً عن نهر، نهر يقيه من النار، فكان أن أدرك الفكرة الرابعة، بعيداً عن الماء، أدرك سرَّ الماء، ماء يعالج غيابه بالبكاء المُرِّ، كانت دموعاً عذبةً على رغم مرارة المصدر، تهطل على الشعلة المتأهِّبة في القلب الحانق، فيهدأ وينطفئ استعاره حتَّى حين.

مستاءً من الملبس الخشن، والعيش الصعب، يعبر الأحياء

المعفَّرة في مكَّة، كلُّ ما حوله فراغ هائل، وقحط، ورغبات ميتة قبل أن تُولَد، يتشهى لمسة "نَشْر"، ويفكِّر في "نشوان"، فيكاتبهما بالقصيدة التي تبقى في مكانها، إذ لا عنوان ترتحل إليه بعد أن تفرَّق الشمل، تراقبه جدَّته وتقرِّر أن تأتي له بأفضل مَن يُتقن التعليم، فبالعلم قد ينشغل عن الحُبِّ والثأر المعجون بهما جسده.

"طَـالَ الفُـراقُ فَبَـانَ عنـهُ صـبرهُ
وقَسَـا عليـهِ فليـسَ يرحـمُ دهـرهُ
واللـهِ مـا خانتـكَ سَـلْوةُ عينِـهِ
وفـؤادهُ يهـوى سِـواكَ يـسرهُ
عُـذِرَ القتيـلُ بحُبِّهـا لكـنَّ مَـنْ
قـد عـاشَ بعـدَ فراقِهَـا مـا عُـذرهُ؟
ويقـولُ لـم أهجـرْ بـلى إذْ بِنتـمُ
أوَليـس يُشـبهُ بَـينَ صَـبٍّ هجـرهُ؟"

أعادت إليه اللغة وسط يباس مكَّة شيئاً من النداوة المفتقدة، وتذكَّر هاجسه القديم، "كلّ بديع حَسَن"، خطَّ الفكرة بجوار الفكرة، واستأنف عمله على هندسة القصيدة من جديد، يضع التركيب على التركيب، حتَّى كأن اللغة طين صلصالٌ في يده، يذوِّبه بالماء والعذوبة على رغم الجفاف المحيط والشدَّة العظيمة، يراقبه معلِّموه بإعجاب ورهبة، فَمَنْ كانت له هذه القدرة على تطويع اللغة، فلا بدَّ أن يُطوِّع العالم ذات يوم، لا بدَّ أن تتمكَّن منه السلطة التي هو فارٌّ منها، يهمسون بالأمر لـ "قبيحة" التي كانت تدرك الأمر قبلهم، لكنها تتمنَّى لو أن لهذا الفتى معجزةَ الخليفة الأموي الذي عبر من نار

دمشق إلى ممالك الأندلس، فلكلِّ سلالة معجرتها، أليس كذلك؟ تردُّ عليهم وهي تمُنِّي نفسها بأن يكسر هذا الشابُّ البهي الطلعة امتدادَ اللعنة.

تسمع "قبيحة" ضحكة "ابن المعتزّ" المجلجلة إذا أتى بفعل جديد في القصيدة، فتخاف، هي تعرف هذه الرنَّة في الصوت جيِّداً، رنَّةُ ضحكة "المعتزّ" المغدور به تعاود الانبعاث في نسله، هو الذي كان يفرُّ من النار بالضحك، ضحكة عرفها أهل بغداد وسامرَّاء كلّهم منذ أن استقام على العرش حتَّى سقط عنه شرَّ سقطة، لتتفتَّت عظامه وتتبعثر ضحكاته في غيابها السرمدي إلى الأبد.

شيريهان

الطائرة من مطار جلاسكو الدولي إلى مطار دبي الدولي، الثامنة مساءً

أهذه شيريهان معها على الطائرة؟ هي تعرف هذا الأنف جيِّداً، لا يمكن لها أن تخطئه، كانت تستطيع أن تراقبها من المساحة الفاصلة بين كرسيِّها وكرسي شيريهان الحقيقية، استغربت من كونها فكَّرت بأن شيريهان الحقيقية هي تلك التي تراها على بعد كرسيَّيْن، وهذا يعني بطبيعة الحال أنها المزيَّفة، وكما كان يغضبها هذا الأمر سابقاً، فإن غضبها الآن عاد أشدَّ ضراوة، الغضب الذي ظنَّت أنه همد وتبدَّد، ها هو ذا يعاود الاشتعال منذ اللحظة التي وصلها فيها نبأ وفاة والدها، غضبٌ يفوق في قدرته على الاختزال سبباً عابراً كالفارق بينها وبين "شيريهان" الحقيقية تلك، "شيريهان" ذاتها التي رأتها على التلفاز قبل سنوات، لكن شيئاً ما في وجودها الحقيقي أمامها كان محمَّلاً بذلك الثقل، المعاكس للخفَّة التي التصقت بها سنواتٍ طويلة، أو لربمَّا هو اللون الأسود، الذي ترتديه الآن، قميص أسود وبنطال له اللون نفسه ومعطف، يا لها من مفارقة! مَنْ كان يتخيَّل أنها في المرَّة الوحيدة التي ستلتقيها فيها، بعد سلسلة طويلة من المشاهدات الملوَّنة، ستكون بهذه القتامة، لها الأنف نفسه الذي تمنَّتْهُ لها والدتها، لكن الوجه كان آخراً، وجهٌ له من التجاعيد ما لم تستطع الشاشات أن تعكسها، لكنها واضحة بشدَّة هنا، هي ليست

شابَّة إلى الأبد، راقبت كيف أخذت تتحرَّك بهدوء، وراحت تتذكَّر كيف فَتَرَ اهتمامها بها قبل سنوات بعدما عادت إلى الظهور، وعاودت جُذوةُ الاهتمام الاضطرامَ في لحظتها تلك، لم تستطع لشدَّة هدوئها أن تتبيَّن نبرة صوتها بوضوح وهي تتحدَّث إلى المضيفات العابرات في المقصورة، ودَّت لو تمتلك الجرأة فتجلس إلى جانبها لتسألها: هل تشاركها غضبها إلى جانب الاسم؟ هل تتقاسم معها الوَحْدَة؟ كانت "شيريهان" وحدها على ما يبدو في الطريق من أدنبره إلى دبي، ثمَّ لعلَّها تذهب إلى القاهرة من هناك، لكنْ، ما الذي كانت تفعله في "أدنبره"؟ هل كانت تفتِّش عمَّا أرادت هي أن تجده؟ لا بدَّ أن هناك حكمةً كامنةً خلف هذه المصادفة، تتشاركان الاسم والآن الحيِّز ذاته، لا بدَّ مِن سرٍّ، راح عقلها يردِّد ذلك وهي تتحرَّك من مَقْعَدها لتُجاور "شيريهان" الحقيقية، التي التفتت نحوها في شيء من الاستغراب، مدَّت لها يدها مُصافِحة، ومدَّت لها الأخرى يدها، فشعرت بسيل من سنوات الغضب والوَحْدَة يتدفَّق من كفٍّ إلى أخرى، شعرت بأن كفَّ "شيريهان" ترتفع بحرارة شديدة، لاسعة، وعندما رفعت رأسها لتحدِّق في عينَيْها مستفسرة عن تلك النيران المستعرة في يدَيْها فاجأتْها الفجوتان محلَّهما، وفيهما رأت "شيريهان" الشهيرة، سيِّدة الخفَّة واللون، وهي تقضي أيَّاماً طويلة من الثقل والحسرات، حسرات فهمتْها هي دون أن تستفسر، لكنها بقيت عاجزة عن أن تسحب الكفَّ من الكفِّ، لتنجو من هذا الاحتراق المريع، حاولت بقوَّة وأخفقت، ولم يَبدُ على "شيريهان" الحقيقية أيُّ استعداد لتُفلت يدها، هل ستشتعلان معاً حتَّى الموت؟ راحت تفكِّر: أتكون هذه هي الغاية من المصادفة؟ ثمَّ تركت "شيريهان" يدها فجأة، وشهقت هي من

البرودة المُفاجِئة التي راحت تلفُّ جسدها، كانت ترتجف عندما استيقظت في مَقْعَدها في الطائرة، أيقظتْها المضيفة، لأنه لم يتبقَّ غيرها في الطائرة الواصلة إلى وجهتها، بحثت عن "شيريهان" الحقيقية في مكانها، وفكَّرت بأنها لا بدَّ أن تكون قد غادرَت مع الركَّاب الذين غادروا الطائرة فور هبوطها.

تحرَّكت الجموع حولها بسرعة، وراحت هي تسحب جسدها كمَن يسحب خلفه حجراً ثقيلا، كثيفة هي الأشياء حولها، متنوِّعة، لا يشبهُ وجهٌ آخر أو رائحةٌ أخرى، لكنها في تلك اللحظة كانت ترى كلَّ شيء متشابهاً بشكل مُربِك، لا شيء له ما يميِّزه لديها في تلك اللحظة، هي تُدرك التباينات جيِّداً وبشكل مضاعف، لكنّ شيئاً ما داخلها تمرَّد على أن يعايشها، عبرَت الإجراءات في مطار دبي بحالة من التيه، وتوقَّفت لتتناول حقيبة صغيرة أعدَّتْها كيفما اتَّفق في طريق عودتها السريعة إلى الإمارات، أرادت إلقاء النظرة الأخيرة على والدها، يجب أن تفعل ذلك مهما كلَّف الأمر، تريد أن تفهم هذا الثقل المريع، لم تكن علاقتهما تستوجب ثقلاً كهذا، فهي لم تكن مدلَّلة، ولم تكن مكروهة أيضاً، هي ابنة عادية وهو أبٌ عادي، لطالما شعرت بأن ما جمع بينهما كان الواجب أكثر من العاطفة .. وغضبٌ مبهم، تتذكَّره الآن، ليس كغضبها الشرس تجاه "ناصر"، لكنه موجود، كغِلَالَة رقيقة لا مرئية بينها وبينه .. غِلَالَة هي نفسها بينها وبين الأحياء جميعاً.

الحمد لله على السلامة.

في منتصف الطريق بين تسلُّم الحقائب وبَوَّابة الخروج من المطار،

قابلها أحمد وناصر، كانت تشعر بالغرابة أمام وجهَيْهما المُتجهِّمَيْن، هي لم تعد تشعر بأيِّ أُلفة تجاه وجه أحمد، كما أن وجه ناصر لا يزال غير مفهوم لها، احتضنها شقيقها على سبيل المواساة، ومرَّةً أخرى طرأت ببالها فكرة الواجب وهي تستغرب رائحته الحامضة التي زاد وقعها، أكانت رائحته دائماً بمثل هذه الحِدَّة أم أن الذاكرة تخونها في ظلِّ التسارع المُربِك لكلِّ ما يحدث؟ هل سبق له أن احتضنها، هي لا تتذكَّر أيَّ تقارب كهذا بينهما؟ تقدَّم منها "ناصر" محاولاً أن يفعل المِثْل، تذكَّرت ليلتهما الأولى معاً قبل عدَّة أشهر من سفرها، وتجنَّبت اقترابه منها بأن أسقطت حقيبة كَتِفِها، أرادت أن لا يظهر الأمر متعمَّداً.

في الطريق إلى المنزل لم يتبادلوا كلمة، كانت شيريهان تتكوَّر في المَقْعَد الخلفي بجسدها كمَن يريد أن يحمي نفسه من أمر قادم، تتأمَّل دبي من النافذة، متغيِّرة ومتكرِّرة في الوقت ذاته، تتنبَّه إلى بضع شوارع مغلقة وأخرى غُيِّرت أسماؤها، ولا شيء آخر عدا زحام المركبات وعجلة الناس في طريقهم دائماً نحو شأن ما، تتنهَّد، يلتفت" ناصر" نحوها فجأة، يحاول أن يبتسم بحنان، تستطيع أن تميِّز ذلك بطرف عينها وهي تتظاهر بالاستغراق في أفكارها، تستند برأسها إلى النافذة، لا تزال تعجز عن فَهْم رائحته، تتذكَّر ليلتهما الأولى معاً قبل أشهر، وكيف أنها حاولت ما استطاعت أن تتهرَّب من فكرة الاحتكاك به، بعد حفلة عقد القران الصغير الذي غادرت بعده من منزل العائلة نحو شقَّتهما الصغيرة التي كانت مرحلة مبدئية إلى حين عودتها من رحلتها الدراسية، لقد وافق على شرطها، ستذهب وحيدةً وسيبقى هو في دبي لكي يعالج شؤون منزلهما الخاصّ قريباً

من مسكن عائلته في المدينة، كان الارتياب يجعلها عاجزة عن تقبُّل فكرة أنها قد تُسلِّم نفسها لشخص ليست قادرة على تبيُّن رائحة جسده، على تمييز دمغته الخاصَّة، كما كانت لها تلك القدرة مع الجميع، لكنه لم يستسلم أمام محاولتها غير الصريحة، كانت تفكِّر طول الوقت وهما في حالة الالتحام بأنها هَلِعة من كيفية انعدام الرائحة، تُغلق عينَيْها، وتتجاهل سؤاله المستمرّ هل ما يحدث يؤلمها؟ هي لا تكاد تشعر بشيء سوى الخوف من انعدام الرائحة، لم يدم الأمر طويلاً، ركضت بعدها إلى دورة المياه، وتوقَّفت تتأمَّل جسدها العاري أمام المرآة، اجتاحتْها مشاعر غامرة من الغضب المتفجِّر، لقد شعرت بأنها انتُهكَت بطريقة ما، تنفَّست بضيق شديد، لكنها لم تستطع أن تبكي، جعلت المياه الساخنة تنهال على جسدها، وعلى رغم شدَّة الحرارة واللسعة إلَّا أنها شعرت بأنها تريد أن تتطهَّر، لم ترد لأيِّ أثر أن يتبقَّى عليها منه، من جِلْده المبهم، راعها أنها تريد أن تتخلَّص من شيء تجهله، وهي إذن قد لا تستطيع أن تدرك أين هو موضع الأثر بالضبط لتتخلَّص منه .. عندما خرجتْ من الحمَّام وجدَتْهُ مستغرقاً في النوم، شعرت بقرف غير مسوَّغ، فعلى رغم أنه كان مستلقياً بوداعة على جانبه الأيسر مواجِهاً باب الحمَّام، إلَّا أنّ من الواضح أنه كان ينتظر خروجها، تأمَّلت ملامحه النائمة، لا شيء منفِّر فيها، ملامح عادية لشابٍّ في أوَّل الثلاثينيات، رأسه لم يعد مثيراً للريبة كما كان، اقتربت منه ومدَّت يدها لتلمس جِلْده، لكنها شعرت بالتقزُّز، فأحجمت عن ذلك .. شعرت في تلك الليلة بأن أنفها قد جُدِع، تذكَّرت ذلك الآن فجأة، وطافت ببالها الفتاة المجدوعة الأنف في الحُلْم، بعد أن كانت قد نسيتْها تقريباً.

أُمِّي تنتظركِ في الأعلى.

لماذا عدنا للبيت؟ دعنا نذهب إلى المستشفى، ألن أرى أبي؟

لا يوجد شيء في المستشفى.

ما الذي تعنيه؟

لقد صلَّينا عليه ودفنَّاه ظهر هذا اليوم.

تذكَّرت وهي تنشج في سريرها تلك الليلة بجوار جسد والدتها النائم كيف هجمت في غضب مستعر على "أحمد" بعد جوابه، شعرت بأن رائحته الحامضة تفاقمت، لتجعلها تشعر بحَنَق عظيم، هي المغدور بها، كيف له أن يحرمها من إلقاء نظرتها الأخيرة على والدهما، فهو والدهما معاً وليس والده وحده، لقد دمَّر محاولتها أن تفكِّك ثقلها الجديد، ومدَّ فصلاً جديداً ومتفجِّراً من غضبها المقيم، تتذكَّر وهي تبكي في أنين مكتوم كيف أن هذا الصراع المُربِك انتقل إلى خارج المركبة وأحمد يصرخ بها في مزيج من العصبية والمباغتة، وهي تمزِّق الكندورة من الأعلى، وتدفع ناصر الذي حاول أن يُنقذ الموقف الطافح بالهستيريا بنظرة مرتبكة ويد قوية، لكنه أُخِذَ بدوره عندما حاولت أن تُنشِب أظافرها في وجهه، هذا الوجه الذي يثير فيها مشاعر متضاربة معظمها حانق وحاقد، شعرت بأنها قد تكون فرصتها الآن لتتخلَّص منه، مِن الوجه وصاحبه، فكرة عبثية ومجنونة ومشتعلة كهذا الجسد الذي تمرَّد على محاولات تحكُّمها المستمرَّة فيه، تراكض الناس من المنزل، عمَّتها التي كانت تُلازِم والدتها، والعاملات في

المنزل، تدافَعنَ بسرعة نحوهما، وحاول "أحمد" أن يصدَّ لكماتها وهجماتها، ظلَّت تحاول أن تُنشب أظافرها بضراوة في كَتِفِهِ ورقبته، وكأنها كانت في مواجهة عدوٍّ تريد أن تتخلَّص منه بشدَّة، وهو أمرٌ لم يفهمه منها ولم يعهده فيها، مَن هذه التي تهاجمه الآن؟ هل هي "شيريهان" فعلاً؟ ما الذي حدث لها هناك؟ كان يتحرَّك بسرعة محاوِلاً صدَّها وعقله مشغول بمحاولات البحث عن إجابات، نجح "ناصر" أخيراً في تقييدها بعد أن وضع يدَيْها خلف ظهرها، وبقيت هي تصرخ بوحشية، حتَّى أتت اللحظة التي وقعت فيها عينها على والدتها التي خرجت من البَوَّابة الداخلية للفيلَّا بهيئة دمَّرت الغضب كلّه الذي تفجَّر، واستبدلت به الحَيْرَة أمام تلك الهيئة الشبحية الرثَّة التي أطلَّت.

مَنْ هذه السيِّدة المتهالكة؟

هل هذه هي والدتها فعلاً؟

عبد العزيز

ديرة - دبي، 1930 م

- قد يكون السرُّ في الأنف الأفطس؟

عشرون يوماً وليلة استلزمَتْهُ للتخطيط للأمر، بعد أن سمع "أُمّ جاسم" تشير إلى أنف "شَمَّا" بوصفه مَكمَن القوَّة، كانت "شَمَّا" قد بلغت السادسة عشرة للتوِّ، وكان "عزيز" في الثانية والعشرين، يتسكَّع كالظلِّ بين الأحياء، فلا هو صغير يلعب مع الصِّبيَة ولا هو الذي اكتسب موقعه بين الرجال، يودُّ لو يُدرك رائحة ما، تغيِّر موقعه أو يتذوَّق شيئاً يجعله يدرك المعنى، معناه، كان رجال التوابل قد عاودوا غيابهم الجديد في موسم التجارة، وخلَّفوه وراءهم، هذه هي الرحلة الثالثة التي يُقصونه منها؛ تأكيداً لخيبة العائلة واستسلاماً لتشخيص حالته التي أُلقيت على عاتق "الجنِّيَّة العاشقة"، راقب "شَمَّا" طويلاً، كان أنفها يسبق الحدث دائماً، تأمَّلها وهي تقدِّم رأسها الضخم وأوَّل ما فيه أنفها، يراقب فتحاته الصغيرة أسفل استدارة أرنبته وهي تنتفخ قبل أن تنطق بأثر "الحرمل" بوصفه المُكوِّن الأساسي للرائحة وهي تتنشَّق بخور "أُمّ جاسم"، رآها في وقت آخر تتنشَّق مسحوقاً بُنِّيَّ اللون، هو مطحون أوراق نباتات مُتيبِّسة، قبل أن تمرِّر عليه طرف لسانها، لتقول لأُمِّها: إن السرَّ في "الميرمية".

يشعر بالتقزُّز من حضورها الجازم، وهي تعرف كلَّ شيء بشكل

أقرب للفطرة من الاكتساب، فهل تكفي حاسَّة الشمِّ لتجعلها تُدرك أسرار العالم كلّه؟ يفكّر أحياناً، هل هذا سرُّ حَيْرَته الدائمة وشعوره المُلتَبِس تجاه الأشياء والأشخاص، أنه دائماً كان يخفق في تمييز الرائحة؟ تتضخَّم قوَّة "شَمَّا" ويزداد قبح أنفها، تتأخَّر في اللحاق بقافلة الزواج، لكنْ، لا يبدو أن هذا أمر يُنقص منها، فلها تميُّزها الخاصُّ، ورحلتها التي لا تُشبه فيها قريناتها، ويكبر على الجانب الآخر شعور الخزي والتضاؤل في نَفْس "عزيز"، على رغم أنه يشعر دائماً بأنه يزداد وسامة، وهذا كان مؤكَّداً حاسماً على حكاية "الجنِّيَّة"، هي تصطفيه لنفسها، تمنحه تلك الوسامة الأخَّاذة الخالية من المعنى، تسلبه قيمته بين الناس، وتتركه لها، لكنه لا يشعر بها ولا يراها، ما العشق هنا إن لم يكن تبادلاً بين قلبَيْن، جسدَيْن، وكلّ ما ينسجم مع فكرة الثنائية، لماذا هو وحيدٌ دائماً إذن؟

لا يعشق الجنُّ كالبشر، أيُّها المجنون.

قالها له ابن عمِّه مظفَّر عندما سأله هامساً في مجلس آل التوابل، ثمَّ عندما بقيا وحدهما، راح مظفَّر يقول كلاماً كثيراً عن عالم الجنِّ: هو عالم المخفي بعكس عالمهم الظاهر الواضح، وإن كلّ ما يرتبط بهم يجب أن يبقى كذلك، هم يكتسبون قوَّتهم الأسطورية من التخفِّي والمراوغة والتخايل، بعكس البشر، الذين يكتسبون قوَّتهم من كلِّ ما وضح وظهر.

لعلَّها تسمعنا الآن.

مَنْ؟

الجنِّيَّة يا "عزيز" .. ألسنا نتحدَّث عنها؟

نعم، لكنها وإن سمعتْنا لن تظهر.

قد ترسل لعنتها .. أستغفر الله، أعوذ بالله.

يتأمَّل عزيز أنف مظفَّر المستدقّ في أثناء الحديث وهو يرتجف رهبة من سيرة "الجنِّيَّة"، أنفٌ جميل وكامل في وجه حنطي حَسَن، ورأس بيضاوي منسجم مع جسد ممشوق وقامة مربوعة تغطِّيها كندورة نظيفة دائماً، تتماهى مع أناقة وحَسَن دخل رجل من آل التوابل المتنفِّذين، أنف بحاسة شمٍّ جيِّدة جدَّاً جعل له حظوةً بين قوافل التوابل وبين الرجال في مجالسهم، لكنه ليس كأنف "شَمَّا" في القوَّة واستدراك الرائحة السريع، هي بشرية جدَّاً في ذلك، ولعلَّه في وقتها تمنَّى لو يكون جنِّيَّاً، فهو أقرب إليهم منه إلى بني البشر، من حيث الحيِّز غير المَرئيّ.

هل من الممكن أن أكون جنِّيَّاً؟

"انته صاحي؟"، ما هذا الذي تقوله "عزيز"؟ يبدو أن تلك الجنِّيَّة تحاول أن تزيدكَ جنوناً؟

أنا أشعر بأنكم لا تروننني معظم الوقت.

أمسك مظفَّر بيد "عزيز" في وقتها ..

هل تشعر بيدي؟

نعم.

بحرارتها.

نعم.

أنا أيضاً أشعر بيدكَ وحرارتها .. أنتَ واضح،" أنته مب جنِّي".

لكنني أشعر بأنكم لا تروننني معظم الوقت.

لعلَّها تفعل ذلك، هي لعنتها التي تحاول أن تأخذكَ بها منَّا لنفسها إلى الأبد، أنتَ مُبتلىً، يا "عزيز"، أكْثِر من الصلاة وقراءة القرآن كما قال المطوِّع، وستسأم منكَ يوماً، صدِّقْني، سمعتُ أنهم مَلُولُون أيضاً .. أولئك الجنّ.

سبق ذلك الحوار اليوم الذي عاود فيه رجال التوابل غيابهم، بقي عزيز بعدها يحاول أن يقرأ ما استطاع من القرآن وَفْق ما علَّمهم إيَّاه المطوِّع، لكن الأمر في نظره كان لا يزال غير حقيقي، لا يستطيع أن يصدِّق ما لا يراه، وما لا يحسُّ به، يرتِّل الآيات بطلاقة، أكسبه إيَّاها وقت الفراغ الطويل الذي كان لا يفعل فيه شيئاً سوى قراءة القرآن، وَفْق ما تعلَّم، لكنْ، حتَّى تلك الطلاقة لم تجعل آل التوابل ينظرون إليه بشيء من الاهتمام، على رغم حبور المطوِّع به وتمييزه له من أقرانه، وكلَّما كبر شعر بانعدام الجدوى، والتشتُّت، حتَّى الربّ، على رغم كلّ أدلَّة وجوده التي يُخبرونه بها، عن رحمته التي تحفُّهم إذا تقرَّبوا منه بالعبادة، وعن عقابه الذي قد يُدمِّرهم إذا أنهم عصوه، لا يراه، تماماً كما الجنِّيَّة، هل يكونان الشخص نفسه؟ أو الشيء نفسه؟

يستغفر ربَّه بخوف عندما يصل إلى ذلك الخاطر، الذي تكرَّر وُرُوده إليه، إلَّا أنه لم يستطع أن يطرحه بصوت عالٍ على أيٍّ ممَّنْ حوله، يلعن "الجنِّيَّة" ألف مرَّة في سرِّه، يريد أن تتبدَّى له، أن تكشف عن نفسها أمامه، قد يحبُّها هو أيضاً، بدلاً من أن يكون حُبُّها له من طرف واحد، بشكل قسري ومُنهِك، يسلبه حياته كلّها، يلعن "الجنِّيَّة" ألف مرَّة علانية، لعلَّها تغضب، فتتجلَّى لعنتها، لعنة قد تعني أن يموت ويصبح مَنسيَّاً فعلاً، على خلاف وقتٍ مُرتبِك يعيشه كالميت الحَيِّ .. فلا هو هنا ولا هو هناك.

يتمنَى أحياناً في شيء من الحقد لو أن "الجنِّيَّة" عشقت "مظفَّر" مكانه، فكَّر في ذلك ليلة زواج مظفَّر، وهو يُرَفُّ وسط الأهازيج لواحدة من أجمل بنات الحَيِّ، مظفَّر الذي كان نسخة "شَمَّا"، هي على اليابسة وهو في الماء، لقد شكَّلا شراكةً غير مُعلنَة، ففي الوقت الذي كان لا يزال فيه محرَّماً على "شَمَّا" أن تركب السفينة لتستكشف أسرار التوابل البعيدة، كان نجم مظفَّر يسطع هناك، بأنفه القوي، الذي وإن كان لا يتفوَّق على أنف فتاة اليابسة، إلَّا أنه كان ما يحتاجونه تماماً، لماذا؟ لماذا لم تعشق الجنِّيَّة الغبية مظفَّر؟ يردِّد "عزيز"، "غبية" بصوت عالٍ، محاوِلاً أن يستفزَّها، ويُخفق ككلِّ مرَّة .. فلا شيء إلَّا أصوات الأهازيج البعيدة، وهو وحده أمام البحر الأبكم بدوره، العاجز عن مَدِّه بأيِّ شيء، حتَّى تلك الرائحة القوية لليُود والملح التي يُباركها بعضٌ ويلعنها آخرون، هو عاجزٌ عن شمِّها.

هو الأنف .. هو الأنف .. هو الأنف .. هو الأنف.

يتمتم لنفسه، وهو يهزُّ جسده إلى الأمام والخلف، في غرفته المظلمة، مفكِّراً بأنف "شَمَّا" الذي استبدَّ بتفاصيل الحَيِّ كلّها بحبور، مُتحيِّناً الفرصة الملائمة، لكي يُفكِّك ذلك السرَّ المرتبط به.

ثمَّ

في الليلة الأولى

فكَّر بالمكان

في الثانية

مكتبة
t.me/soramnqraa

بالوقت

في الثالثة

بالأداة

في الرابعة

بكيفية إقناعها بأن تصحبه وسط ارتباك علاقتهما

في الخامسة

بما قد يحتاجه من مُسوِّغات لفعلته

ومن الليلة السادسة حتَّى العشرين

كان يحاول أن يستجمع رباطة جأشه

ثمَّ قال لها وهو يقترب منها في الليلة الواحدة بعد العشرين مشيراً إلى أنفه: إن رائحة مُبهَمَة تلفُّ الساحل، وإنه يريد أن يتأكَّد من أنها رائحة إياب رجال التوابل، شعر بأرنبة أنفها تتضخَّم كجزء من غرورها المتعاظِم، فها هو ذا يعترف أخيراً بأنفها الأفطس، ليطلب منها أن تحلَّ لغز رائحة ما، ظنَّت بأن في هذا الطلب ما قد يفكُّ أمر علاقتهما المُلتبسة، ففي الوقت الذي كانت تترك أثرها فيه على أهل الحَيِّ جميعهم، بقي حضورها أمامه باهتاً، لم يسبقْ له أن منحها نظرة الإعجاب التي باركها بها جدُّهما عندما بلغت عامها السادس، ولا أن هلَّل لها كتهليل سيِّدات الحَيِّ وهنَّ يشهقنَ أمام دقَّة وصفها لما تتذوَّقه من مُكوِّنات، أو لما تقترحه من خليط للزيوت العطرية، التي جعلت الحَيَّ يصبح إلى جانب التوابل شهيراً بالعطور المختلفة في تكوينها عن المعتاد، كان يبدو دائماً كمَن لا يراها فعلياً .. وكلَّما اقتربت هي منه محاوِلةً أن تلمسه تبدَّد هو كغيمة أمام الصحو، متلاشياً .. لم تعرف أكان عليها أن تخاف منه أم أن تألفه، أن تقترب منه أم تبتعد، أن تحذر أم تثق، الرائحة الحامضة هي التي جعلت موضعه منها في المنتصف، مُذَبْذَباً دائماً.

كانت هذه الليلة هي المرَّة الأولى التي تشعر فيها بأنها تشمُّ منه أيضاً رائحة أخرى غير مألوفة، رائحة تمزج بين الخشب المحترق التي تشبه رائحة والدها بعض الشيء والعطونة الحامضة الغريبة، ولسعة من رائحة أخرى لم تفهمها، تقترب من رائحة الجثَّة المتفسِّخة التي شمَّتْها قبل سنوات، لكن وقعها ليس بالحِدَّة نفسها، على رغم أنه لم يكن تأثيراً يبعث الارتياح في الوقت ذاته، لم تفهم ما سرّ

هذه الرائحة التي تفاقمت مع إسراعه الخطو وهو يسحبها خلفه في سيرهما السريع، أيتلهَّف هو إلى هذه الدرجة من أجل عودة رجال التوابل؟ أيظنُّ أنهم سيأتون هذه المرَّة بعلاجٍ لحالته قد يُعتقه من الجنِّيَّة الشهيرة؟ أسئلة راحت تكبر وهما يقتربان من الشاطئ الساكن قرابة الفجر، لم تدم حَيْرَتها طويلاً، إذ وصلا إلى المقصد، فأدركت السرّ، والموجة اللامعة على أثر بدرٍ مكتمل تعكس ذلك النصل الحادّ الذي شُهِر في وجهها قبل أن تبتلع صرختَها.

شيريهان

دبي، الثامنة صباحاً

أشعر بأني كمَن جُدِع أنفه.

ما هذا الذي تقولينه؟

كان سؤاله استفهامياً شديد العفوية، لكنها كعادتها رأتْهُ مُستفزّاً، أرادت أن تقول له إن هذا الشعور راودها في الليلة الأولى التي تماسّ فيها جسداهما معاً، لكنها أحجمت عن ذلك .. كانت تلك العبارة في الحقيقة تمثيلاً لفكرة خرجت بصوت عالٍ، هي لم تتوجَّه إليه بالكلام، يُربكها أن يزاحمَها ناصر حتَّى في حيِّز أفكارها أحياناً.

سأذهب مع أُمِّي إلى موعد المستشفى، لا أريد أن أتأخَّر.

متى تعودين؟

وسؤاله هذه المرَّة جاء عادياً، لكنها أرادت أن تصرخ بأنه لا يحقُّ لأيِّ أحد أيّاً كان، وتحديداً هو، أن يسألها عن موعد عودتها .. أرادت أن تقول: أنتَ تخنُقُني، إن ارتيابها منه يتحوَّل مع مرور الوقت إلى ما يشبه الأغلال على الرئَتَيْن.

لا أعلم، قد أتأخَّر، لا أعرف كيف سيكون حالها بعد جلسة العلاج هذه المرَّة.

كانا قد انتقلا مؤخَّراً للسَّكَن مع والدتها، حدث الأمر بالتدرُّج بعد انقضاء فترة عزاء والدها، لم تعد مباشرة إلى منزلهما، بقيت بحُجَّة أنها لن تترك والدتها وحدها بعد العزاء مباشرة، ثمَّ نعلَّلت بالاهتمام بشؤونها الصحِّية بعد أن تفاقَم المرض إلى جانب غياب أحمد المستمرّ، الذي لم يكن في وضع ملائم للإشراف على شؤونها الصحِّية.

ماذا لو أنتقل لمنزل أُمِّي هذه الفترة حتَّى يُستكمَل علاجها.

سننتقل معاً!

لم تجادله وقتها، كانت مشغولة بالصندوق الذي أمرتْها والدتها بأن تُحضره إليها من مخزن بيتهم القديم في الحَيِّ، قُرب المَقْبَرَة، ومُتعَبةً من رائحة الذاكرة القديمة التي لفَّت البيت، بيتاً مهجوراً ومتهالِكاً، لم يحسم الأمر بشأنه، سوَّف والدها طويلاً، وتناساه لاحقاً، والآن ها هو ذا يرحل ويتركه كشأن عالق ضمن التركة التي سيتقاسمونها قريباً، كورطة لا يريدها أحد .. لم تعد مشغولة بالقرب من المقابر، وهي تُدرك أن السرَّ يتجاوز تلك البقعة المُصمَتَة.

عادت بالصندوق يومها إلى بيتها، قبل أن تذهب به إلى والدتها، شعرت بالفضول الشديد تجاه ما بداخله، ما السرّ في هذا الصندوق المربَّع الأملس؟ صندوقٌ خشبي خلا من التفاصيل، إلَّا مِن قفل صغيرة يُغلقه، ويَحول بينها وبين المعرفة، فإن هي كسرت القفل عرفت والدتها بأنها خانت الأمانة، وبدأت بعدها بتحضيرات انتقالهما، مُتجنِّبةً "ناصر" قَدْر المستطاع، منشغلة ومتشاغلة، لم

ترد أن يحدث أيُّ تماسٍّ بينهما يعمق شعورها بالأنف المجدوع، ويُخيَّل إليها أنه يتظاهر بتفهُّمه وهو يتميَّز غيظاً من الداخل، تلمس ذلك من حضوره الثقيل على الأشياء حولها، خطوته الصاخبة، غلقه للباب خلفه بقوَّة، الضجيج المتفاقم الذي يصنعه ولا ينسجم مع شخصيَّته المحايدة المهادنة غالباً، هو الآتي من عائلة يُشعِرك أفرادها بأنهم موجودون لتغطية الأدوار الثانوية الخافتة في الحياة، دون أن يكون لأحدهم دور البطولة في أيِّ شيء أبداً.

تناولت الإفطار صباح اليوم مع "أحمد" في صمت، لم يتحدَّثا عن حادثة غضبها المتفجِّر يوم عادت بعد وفاة والدهما، كما أنهما لم يتحدَّثا عن أيِّ شيء تقريباً بعدها، سوى ما يرتبط بالشؤون الخاصَّة بما بعد وفاة الأب، التركة، توزيعها، العقارات القائمة، واحتمال بيعها ما عدا البيت القديم المهمل، فلا هو قابل للهَدْم، ولا لأن يُؤهَّل بسكَّان جُدد، تحاول أن تذكر متى بدأ الأمر الذي قطع بينهما الكلام بهذه الطريقة ليتعاظم الصمت، لكنها تخفق دائماً في التذكُّر، يبدو أنه حصل بتراكم خفيف وخفي، استشعرت هي أثره بَغْتَةً وكأنه نجَم بين يومٍ وليلة، كان أحمد يذكِّرها الآن كثيراً بوالدها بعد وفاة عمِّهما، وأخافها بعض الشيء أنها تميّز منه رائحةً عبقة، خفيفة، رائحة فرح وتحرُّر، على رغم أن علاقته بالأب كانت أعمق بالتأكيد من علاقتها، علاقة محكومة بالواجب أيضاً، لكنها أقرب، فهو الأقرب إلى ملامح العائلة، كما أنه هو الرجل، امتداد السلالة وما يرتبط به من خزعبلات كما تراها "شيريهان"، لم تناقشه في موضوع غيابه الذي كثر عن البيت، ولم تسأله كيف كان الأمر أوَّل مرض الأمِّ؟ ومَنْ كان يعتني بها

بمساعدة العاملة؟ كأنما كانت هذه المهمَّة تنتظر أن تعود الفتاة لتُلازم أُمَّها في المرض ما كتبَ الله.

لأُمِّي اليوم موعد في المستشفى.

رفع رأسه عن شاشة هاتفه الذي كان مشغولاً به وهو يتناول الطعام مقابلاً إيَّاها على الطاولة، كانت نظرته حائرة في بادئ الأمر، وكأنه تنبَّه إلى وجودها للتوِّ، واستغرب كيف أنه لم يحسّ به قبلُ، ثمَّ أتت تلك النظرة الصلبة، المفرَغة من شعور محدَّد، وشعرت برائحته الحامضة تطفو على السطح، أومأت له وغابت .. ولم يُعقِّب هو على عبارتها.

تجلس "شيريهان" في الطريق إلى المشفى إلى جوار والدتها في المَقْعَد الخلفي، تتابع شرودها الذي أضحى سِمَتَهَا الغالبة، أن يتضاءل حضور وعيها مع هزالها المستمرّ مِن جرَّاء المرض، تتذكَّر بمرارة كيف أنها لم تكد تعرفها عندما وقعت عينها عليها في ليلة العودة، لقد خرجت من الداخل كشبح، ببشرة شاحبة، يستحيل أن يتبيَّن أحد اللون الأصلي لبشرة صاحبتها، وعينَيْن غائرَتَيْن، وفكَّيْن بارزَيْن، وهزال طافح أخذ يَنِزُّ عن كلِّ جزء من الجسد، من هذه الغريبة؟ أين أُمُّها الريَّانة؟ فهمَت فجأة سرَّ ذلك الصوت المتضائل على الهاتف حين تكلَّمها من "أدنبره"، ونبرة الهزيمة التي كانت غائبة عن فَهْمها في ذلك الوقت، لكنها لم ترد لها أن تستسلم، لا تريد أن يهزمها المرض، ستبقى معها، وستنتصران معاً ككيان واحد، يُشعرها ذلك بالغضب بدلاً من القوَّة، فتوحُّدهما الطارئ يَعوقها عن "أدنبره" واستكمال سبر السرِّ.

سنفتح اليوم الصندوق معاً.

قالت والدتها عبارتها تلك بصوت خفيضٍ كمَن يحدِّث نفسه، لكنها عرفت أنها تحدِّثها، قالت: معاً، ولم تعد هناك "معاً" مؤخَّراً إلَّا بمعناهما هما الاثنَتَيْن، ظنَّت أن والدتها نسيت أمر الصندوق، فبعد أن ظلَّت تُلحُّ عليها بإحضاره من مخزن المنزل القديم، لم تسأل عنه، ولم تحاول "شيريهان" أن تضغط عليها بالأمر على رغم ما اعتراها من فضول، شعرت بأن هناك لحظة ستحين لكشف الأمر، ويبدو أنها حانت .. فأومأت لها برأسها دلالةً على الموافقة.

وفي المستشفى جلست على الكرسي المقابل للسرير، الذي استلقت عليه والدتها لتبدأ الفحوصات الاستعدادية لما قبل جلسة العلاج الكيميائي، كانت تُغلق عيناً خالية من الرموش تقريباً، بكثير من الاستسلام، تحدِّق "شيريهان" في جسدها المتفكِّك، وتكاد تستشعر رائحة الفورمالدهيد وهي تخرج منها، الرائحة المرتبطة الآن في ذهن "شيريهان" بالموت .. تستغرب استسلام والدتها، والهزيمة التي أضحت سِمَتَهَا شبه الدائمة منذ سنوات، حتَّى إن الأمر لم يشكِّل فرقاً بوفاة والدها، فهي على هذه الحال منذ مدَّة طويلة، تراقب المحلول الحارق وهو يتسرَّب إلى جسد والدتها، تشعر برائحة الحرائق المشتعلة تخرج من خلاياها.

لماذا أخفيتِ عنِّي أمر مرضكِ هذه المدَّة كلّها؟

فتحت أُمُّها عينَيْها الغائرَتَيْن، بدا أنها أيضاً كمَن تنبَّه إلى وجودها معها فجأة .. وبعد صمت قصير أجابتْها:

لم أُرِد أن تعودي.

لم تعلم في ذاك الوقت إن كانت هذه العبارة إشفاقاً أو بُغضاً، أهي لم ترغب في عودتها كي لا تقطع دراستها أم فعلت ذلك لأنها لم تُرِدها بقُربها؟ كان الانفعال الغائب عن نبرة أُمِّها يجعلها لا تتبيَّن المعنى الموارَب، راحت والدتها تسعل بقوَّة بعدها؛ وهذا يعني أنها ستتقيَّأ، هُرعت شيريهان بسرعة نحوها مع إناء القيء الموضوع بجوارها، راحت تمسح على ظهرها بحنان، وهي تحاول أن تجعل التقيُّؤ يسيراً عليها، كانت الجلسات تزاد ضراوة مرَّة بعد أخرى في شدَّتها على الجسد، ويبدو الأمر للجميع كأنها رحلة نحو الموت لا إلى التشافي، لكنّ الأمور تسوء قبل أن تتحسَّن، أليس كذلك؟ يحاول الجميع أن يخدع نفسه بذلك، الأُمُّ وشيريهان وأحمد أحياناً.

سنفتح اليوم الصندوق معاً.

عادت والدتها لتتحدَّث عن الصندوق، لكنها لم تُجبْها هذه المرَّة، انشغلت بجِلْدها الضامر، وهي تتذكَّر الجلود التي شرَّحتْها طويلاً هناك في "أدنبره"، كان جسد والدتها في وضعه الحالي، مقاربٌ جِدَّاً لتلك الجثث، هي عالقة في منطقة وسطى، بين اللحم الحيوي والتفسُّخ النهائي، أخذتْها المرارة، على خلاف السعادة التي كانت تشعر بها بجوار تلك الأجساد الهامدة، أرادت أن تصرخ، أن تبكي، ها هو الموت يتحدَّاها مرَّة أخرى، يمدُّ لها لسانه ويركض في غرفة العلاج حولها مثل طفل بغيض ومشاكس. تمالكت نفسها، وعادت لتجلس مقابلةً والدتها، التي استكانت لعلاجها باستسلام:

أُمِّي، هل .. هل تخافين من الموت؟

سألتْها "شيريهان" بصوت متهدِّج، متوقِّعة انفعالاً ما من الأُمِّ، لكنها بقيت على حالتها المستكينة مُغمضة العينَيْن.

أظنُّني متُّ منذ زمن.

رافقهما الصمت التامُّ في الطريق إلى المنزل، كانت الأُمُّ متكوِّمة على جسدها في رجفة خفيفة، واقتربت منها شيريهان لتحتضنَها برفق، محاولةً أن تتهرَّب من رائحة الموت القوية، أو ما اعتقدتْها رائحة الموت، لفَّها الخوف، كلَّما أدركت ثبات الرائحة، ولم تفهم إلى أين قد يقودها هذا كلُّه، شعرت بأنها عادت إلى موضعها حول سور المَقْبَرَة العالي، تَحفِر بإصرار، وبدون أمل، دون أن تصل أو تفهم ..

إلى أين يقود هذا كلّه؟ إلى أين؟

وضعت والدتها في السرير، ظنَّت أنها ستكون مستعدَّة لكي تغطَّ في نومٍ عميق، لكن والدتها عادت لتطلب منها الصندوق.

سنفتح اليوم الصندوق معاً.

هل تريدين أن نفعل ذلك الآن؟

نعم.

حسناً، سأذهب لكي أُحضره من الغرفة.

كان ناصر لا يزال غائباً. تُصيبها ساعات غيابه أحياناً بالاستغراب،

هي لا تذكر أنه تحدَّث أمامها عن أصدقاء له أبداً، فما الذي يفعله بالوقت الفائض كلّه بعد ساعات العمل المعتادة التي تنتهي نحو الرابعة عصراً، نفضت الفكرة وهي تُهرع لتُحضر الصندوق الخشبي الصغير من الخزانة، عادت إلى والدتها لتجدها نائمة، لا بدَّ أنها كانت في حالة هذيان .. تركت الصندوق على الطاولة المقابلة سريرها، وأغلقت الباب بهدوء، لم تعد تستطيع أن تميِّز فرق الرائحة بين المنزل والمشفى، تشعر بأن حواسَّها مشوَّشة، لا تذكر المرَّة الأخيرة التي غادرت فيها المنزل دون أن يكون ذلك ضرورياً، وترفض باستمرار اقتراحات ناصر للخروج في وقت مستقطع خاصّ بهما، تستخدم والدتها كحُجَّة جاهزة ودائمة، لكنْ، ماذا لو غابت تلك الحُجَّة!

تتنهَّد، تتأمَّل ساعة يدها التي لا تزال على توقيت "أدنبره"، وتشعر بالبرد الشديد على رغم حرارة الجوِّ حولها في هذا الوقت القائظ من العام، كانت وعدت نفسها بأنها ستعود لاستكمال الفصل المبتور من دراستها بعدما تتعافى والدتها، جلسات محدَّدة من العلاج، تتعافى، يعود كلُّ شيء إلى طبيعته، وتعود ساعة يدها لتعمل في "أدنبره" وَفْق التوقيت هناك، لكن الشهور تمضي برتابة ودون بوادر شفاء قريب أو عودة، تحلم عشوائياً بالجثث، وتستيقظ سعيدة، تحلم بذلك الرأس الذي يقودها إلى النهر، وتستيقظ بهالة من الأمل، قبل أن تلتفت ناحية ناصر الراقد إلى جانبها، لتتذكَّر ما هي فيه مِن مأزق، ما هو هذا الأمر الذي ورَّطت نفسها فيه إلى الأبد؟

قضت وقتها في قراءة بعض أبحاثها الدراسية القديمة مواسيةً نفسها، ولمَّا سمعت صوت سيَّارة ناصر في الخارج استعجلت تتصنَّع

النوم، تكاد تفعل ذلك كلَّ ليلة، لكي تفلت مِن معاشرته، تعرف أنه سيدخل الآن وسيحاول، وستتصنَّع هي النوم العميق بعد يوم مُنهِك من العناية بأُمِّها.

دلف ناصرٌ إلى الغرفة، كانت تسمع خطواته وهو يدخل دورة المياه ويستحمُّ قبل أن يخرج ليرتديَ منامته، ثمَّ يستلقي إلى جانبها.

أنا أعرف أنكِ لستِ نائمة.

كتمت تسارُع تنفُّسها.

أعرف أنكِ تتهرَّبين منِّي.

واصلت الصمت.

لكنكِ لن تستطيعي أن تستمرِّي في ذلك إلى الأبد.

استفزَّتها عبارته، شعرت بالغضب المقيم بداخلها يعود ليشتعل بدرجة عُليا، لم تستطع أن تُكمل مسرحية النوم المُبتذَلة، نفضت عنها الغطاء، وواجهته بحِدَّة، واعتدل هو في جلسته مع نظرته غير المبالية ذاتها، أرادت أن تقول له إنها تشعر بالتقزُّز منه، ومن كلِّ مرَّة يحاول فيها أن يلمسها، وبأنها ترتاب منه، ولا تعرفه حقَّاً، ولا تجد أنها تريد أن تعرفه، وإنه أشدُّ الكائنات القلائل الذين عرفتهم على أرض الخليقة إملالاً ورتابة، وإن الجثث، حتَّى الجثث التي كانت تشرِّحها، أكثر تشويقاً منه، ولديها القدرة على إسعادها ودفعها نحو الحياة، على رغم كلِّ ما تقوم به من تمثيل عكس ذلك.

لكنها وجدت نفسها تجهش ببكاءٍ مُرٍّ بدلاً من ذلك، كان بكاءَ غضبٍ، لا بكاء ضعف، حاولت أن تتمالك نفسها لتستطيع أن تقول له ذلك، لكن الأمور كانت خرجت عن السيطرة، ولم يعرف هو كيف يقابل هذا الانفجار المباغت، فدائماً كانت "شيريهان" في نظره كتلة مشتعلة، ليس له أن يفهمها، كتلة تُناقِض تماماً طبيعته التي تقف على الحياد من الأشياء كافَّة، ولعلَّ هذا الأمر هو ما جذبه إليها ورسَّخها في باله دائماً، حتَّى انتهى به الأمر زوجاً لها، تُثيره تقلُّباتها وحِدَّتها والحَيْرَة التي لا تستكين في عينَيْها بحثاً عن إجابة، على رغم أنه لم يكن أبداً أحد الباحثين عن أيِّ إجابات أو مهتمَّاً بذلك، هو لم يكترث حتَّى بمعرفة حقيقة شعوره نحوها أو حقيقة شعورها نحوه، لم يهتمّ لأن يفهم انقياده نحوها أهو شهوة جسدية صرفة أم هناك جانب روحي أعمق في الأمر؟ لذلك كان غالباً لا يستطيع أن يتعامل مع تلك الكتلة المتفجِّرة أمامه، على رغم أنه يريد أن يحتويها، هل هو الاحتواء أو الامتلاك؟ هو لا يعلم أيضاً، وجد أنه ينتظر أن تهدأ، وقد فعلت أخيراً، همَّت بأن تغادر السرير، لكنه جذبها بقوَّة نحوه .. تلاقت نظراتها العاصفة بنظراته الحائرة، قبل أن ينتقل بعينَيْه إلى شفتَيْها، اقترب منها بأنفاس متصاعدة، وشعرت بلسانه يلعق أثر الدموع على وجهها، لم تقاوم، لم ترد أن تقاوم، ثمَّ حدث الالتحام.

بقيت شيريهان مشوَّشة كثيراً في الأيَّام التالية، لم تعرف كيف تصف ما يعنيه كلّ ما يربطها بـ "ناصر"، هي لا تكرهه، هذا مؤكَّد، هذا ما تحسُّ به الآن على الأقلِّ، لكن شعورها بالغضب يتعاظم عند قربه، إنها تكاد تمقت كلَّ ما يرتبط بتفاصيله، لكنها بعد تلك الليلة

لم تعد تتحاشى أن تكون قريبة منه، هي كمَن يضع نفسه تحت مخبر التجربة، وكلَّما تماسَّا أعادت تحليل ما تحسُّه، تشعر أحياناً بأنها تتعرَّض منه لطعنات مستمرَّة، وبأنها تودُّ لو تبادله تلك الطعنات، وتشعر في أحيان أخرى بأنها تطفو على نهر، وبأن هذا الطفو يروقها، لكن هذا الشعور سرعان ما يتبدَّد، فيحلّ محلَّه الاستفزاز، لا تزال ترفض عروضه للخروج لقضاء وقت منفرد معاً، تخاف من الصمت معه، إنه ارتيابٌ مضاعف يضاف إلى ارتياب انعدام رائحته، تشعر بأن حالة الصمت التي تجمعهما هي بمثابة قنبلة موقوتة ستنفجر يوماً، هذا ما يُنبئها به حدسها الداخلي.

انتبهتُ متأخِّرةً وسط أيَّام تشوُّشها إلى اختفاء الصندوق، لم تعرف هل أخفتْهُ والدتها في مكان أو وضعتْهُ في مكان ونسيَتْ موضعه فعلاً؟ وكانت إذا سألَتها تكتفي بالتحديق فيها بنظرتها الشاردة، كأنها لا تعرف ما يعنيه الحديث عن ذلك الصندوق.

أُمِّي، ألَا تذكرين؟ .. الصندوق الذي قلتِ إننا يجب أن نفتحه معاً قبل عدَّة أيَّام.

يبقى الصمت، والصمت بينها وبين والدتها لم يكن كذلك الذي بينها وبين ناصر، هو أشبه بوضع علاقتهما في قالب، لم تتحدَّثا كثيراً في الشؤون الخاصَّة، بل العموميات فقط، فلم تشعر قطُّ بحاجتها إلى أن تُطلعَها على أسرارها وأفكارها كما كانت تسمع من بعض الفتيات وطبيعة علاقتهنَّ بأُمَّهاتهنَّ، هي تحبُّ أن تقضي وقتها معها بالطبع، لكنها كانت تُحبُّ أيضاً أن يكون جُلُّ ما بينهما هو الصمت

الذي تعيشانه معاً بعفوية، دون ارتباك ولا شعور بضرورة أن يكون هناك كلامٌ خاصٌّ ليملأ الحيِّز السمعي، لم تكن أُمُّها فضولية معها أو مع أحمد، وهي تشبه في ذلك والدهما، فما كانا يفعلانه هو عناية الواجب لا عناية المودَّة الخالصة، هما متشابهان في ذلك مع كثير من العوائل الحديثة التي تعيش خلف جدرانها المُصمَتة، في حلقة الواجب المستمرَّة، حيث ما هو مُفترَض وما يجب أن يكون، في هدوء ودون عاطفة غامرة أو جلافة غير سائغة.

عمدت إلى تفتيش غرفة والدتها بعد نومها، ثمَّ راحت تفتِّش خارج الغرفة، لعلَّ والدتها في لحظة شرود وتعب من العلاج أقصت الصندوق خارج الغرفة، وجدها ناصر منهمكةً في البحث.

ما الذي تبحثين عنه؟

صندوق.

صندوق؟

نعم، لقد أحضرتُهُ من منزلنا القديم بناءً على طلب أُمِّي، ووضعتُهُ في غرفتها لنفتحه، لا شكَّ أنها تملك مفتاحه، لكنني لا أستطيع أن أجده.

هل سألتِها عن مكانه؟

أجل، أظنُّها نسيت أين وضعتْهُ بعد أن تركتُهُ لها في غرفتها، وقد بحثتُ في الغرفة، ولم أجده.

هل هو صندوقٌ مهمٌّ إلى هذه الدرجة؟

تنبَّهت في لحظتها إلى توتُّرها المتصاعد، أرادت أن تجد ذلك الصندوق الذي يظهر اختفاؤه الآن كحدث هامشي جدًّا، في خضمِّ كلِّ ما تمرُّ به مع مرض والدتها وانقطاع دراستها، لكنها شعرت بأنها تفتقد الأمور الهامشية، كأن تشعر بأنها كالآخرين في نهاراتهم العادية، حيث يحدث أن يكون أكبر حدث جَلَل في يومهم هو أن يفقدوا قلَماً أو ساعة يد أو نظَّارة شمسية، ويبحثوا عنها.

أعتقد أنه مهمّ.

لا بأس، سأساعدكِ في البحث عنه.

أومأت له بامتنان، وتنبَّهت إلى أنها تشعر بلُطفه الآن، اقتربت منه دون أن يتنبَّه مُحاوِلةً أن تشمَّ في رائحته ما قد يوحي لها بهذا اللطف، إلَّا أنها عادت لتصطدم باللاشيء.

هل تذكر أنني أخبرتُكَ سابقاً بأنني لا أستطيع تمييز رائحة لكَ؟

ماذا؟

كان يسألها بحَيْرَةٍ حقيقية، إلَّا أن عدم مقدرته على فَهْم ذلك جعلها تستعيد شعورها الدائم بالاستفزاز منه، وطافت ببالها ذكرى حديث ربمَّا خاضاه في وقت سابق، قد يكون نسي، وربمَّا هي لا تتذكَّر متى حدث ذلك بالضبط.

لا عليكَ، انسَ الأمر، ودَعْنا نُواصِل البحث.

انصاع لرغبتها في نسيان الأمر بطواعية، يسمعها تقول كثيراً من المبهمات، وهذا جزء من شخصيَّتها المتناقضة، يشعر أحياناً بأن سِحْرها لديه قد يتبدَّد لو فَهِمَهَا كما هي أو اقترَبَت منه بوضوح، أراد أن يلتفت نحوها ليقول لها: إن ما يفعلانه الآن يذكِّره بأوَّل مرَّة رآها تَحفِر التربة فيها عند سور المَقْبَرَة، كأنها تبحث عن شيء، وإنه أراد في تلك المرَّة أن يساعدها على الحفر؛ لأنها تنبَّهت له وكلَّمتْهُ بعد أن تجاهله أبناء الحَيِّ، كانت تبدو في وقتها كأنها الوحيدة التي رأتْهُ، لم يفهم ما كانت تريده حقَّاً مِن بحثها المضني، لكنها رأتْهُ حتَّى في وسط ذلك البحث، وكلَّمتْهُ، وهذا ما لم يفعله الصغار في ذلك الوقت؛ لغرابة هيئته وغربته عن الحَيِّ، أيكون هذا هو ما جعله يتعلَّق بها كلَّ هذا التعلُّق، دون أن ينساها حتَّى في السنوات التي فرَّقت بينهما، ذلك الامتنان الطويل الأمد، هو ما يجعلها تستطيع تطويع تصرّفاته تجاهها، أن ينصاع لكلِّ ما تطلبه دون جدل؟

أيكون ذلك أيضاً هو ما يجعله يحاول أن يترك حضوره خفيفاً حولها كلَّما يشعر بأنها تتجنَّبه أكثر فأكثر دون سبب واضح، يقضي ساعاتٍ طويلة من اللاشيء بعد العمل، متنقِّلاً من مقهى إلى آخر، ومن قاعة سينما إلى أخرى، وكثيراً جدَّاً ما كان يقضي ساعات طويلة أمام البحر، جائعاً إلى رؤية البحر باستمرار، كأنه شخصٌ كان قد حُرم منه، ويرغب الآن بتعويض ذلك الشعور الكامن بالحرمان، لم يكن يعبأ بأيِّ طقس، فلا طقس يعيقه عن رؤية المَدِّ والاقتراب منه، لا البرد الشديد في الشتاء ولا الرطوبة الخانقة في الصيف، كان مُشَاهداً بشكل دائم على شاطئ "جميرا"، أو سابحاً في بحرها، وفي الوقت

الذي كانت تتبدَّل حوله هويات الأشياء والأشخاص بسرعة، راح يطبع على البحر هويةً خاصَّة جعلت الذين يقصدون هذا البحر باستمرار يربطون بينهما، بشكل لا قصدي، مرتبط بالتراكم والتكرار، يسبح وقتاً طويلاً، ويبقى في أحايين كثيرة طافياً عمودياً، تاركاً رأسه خارج الماء، مُحدِّقاً بالضجيج حوله بصمت، متأمِّلاً التباينات الشديدة للناس على الشاطئ، لغات متعدِّدة وأعراق كثيرة قد تصيب المتمعِّن بالدوخة، وعلى رغم أنهم يتحاذون إلى درجة كبيرة إلَّا أنهم يبدون كأن كلَّ واحد منهم هو وحده على الشاطئ، ولكلٍّ منهم بقعته التي تعزله عن رؤية الآخر، على رغم عدم وجود حاجز مرئي بينهم، يتأمَّلهم طويلاً، يراهم ويرونه، دون أن ينفذ أيٌّ منهم إلى دواخل الآخر بعمق، أو يشعر بفضول كافٍ يجعله يفتح حديثاً، ولو ببضع كلمات عابرة، أمَّا المدينة الحاضنة البحر، فكان يراها حين يقصد البحر صباحاً قبل الذهاب إلى العمل وهي تركض بهوى طفولتها الأولى، حافيةً بثوب خفيف، أحمر، لها سُمْرتها المعفَّرة، وشَعْرها الطويل الفاحم المبعثر حول وجهها دون تشذيب، تركض وتتحرَّر في المدى الأُفقي المفتوح أمامها، متغافلةً عن ذلك التطاول الرأسي في المنتصف، حيث قلبُها، الذي تعرف أنه سيزداد خشونة، تقترب من البحر لتبلِّل ذلك القلب، لعلَّه يلين، وتغرس في الماء قدمَيْن كشجرة متجذِّرة عطشى، في حالة من اللاشبع الأبدي والخوف معاً، تُذكِّره صورة المدينة التي تنطبع في باله بـ "شيريهان" دائماً.

أتذهبين معي إلى البحر؟

الآن؟!

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً، لكن الفكرة عبرت بذهنه على نحو حوَّلها إلى رغبة مُفاجِئة مُلِحَّة، لقد أراد أن تكون هناك معه، قد تراه مختلفاً، قد يذيب الماء المالح ذلك الحاجز بينهما، لن يقبل أن ترفض هذه المرَّة.

لا.

لماذا؟

الوقت متأخِّر، هذا أوَّلاً، كما أني لا أرغب بترك والدتي وحدها.

هي نائمة، لا بدَّ أن يعود أحمد قريباً، ثمَّ إن العاملات في المنزل.

كانت المرَّة الأولى التي تلمس منه فيها إلحاحاً كهذا، هل هناك سرٌّ خلفه أم أنه مجرَّد خاطر عابر، نظرت إليه مليَّاً، وعميقاً إلى نظرة الرجاء المشعَّة من عينَيْه، فكَّرت برائحة البحر وكُرهها لشدَّتها، لكنْ، هل ستكشف لها تلك الرائحة المشبَعة باليود والملح شيئاً جديداً قد يجعلها تدرك سرَّ الرائحة الغائبة عن جسد ناصر، تنهَّدت لترتاح من تلاحُق الأفكار، ورأى ناصر في تلك التنهيدة قبولاً مبدئياً لفكرة البحر.

هل نذهب؟

امنحْنِي وقتاً لأُغيِّر ملابسي.

لا حاجة لذلك.

نظرت نحوه باستغراب، كانت ترتدي فستاناً منزلياً خفيفاً، وتلفُّ شَعْرها كعادتها على هيئة كعكة أعلى رأسها.

لا يحتاج البحر إلى التأنُّق، الوقت متأخِّر كما قلتِ، لن يلاحظنا أحد!

ثمَّ وجدت شيريهان نفسها تجاوره في السيَّارة، مضى على زواجهما سنة وشهر واحد بالضبط، لكنها مرَّتها الثانية معه في سيَّارة وحدهما، وكما توقَّعت، كان الصمت حاضراً بقوَّته المعهودة بينهما، جاثماً على أنفاسها، وهذا جعلها تحاول أن تجذب نَفَساً عميقاً.

أتشعرين بالحَرِّ، هل أزيد من برودة التكييف؟

التفتت نحوه بنظره جامدة، هو يتعامل معها كضيفة طارئة يرغب أن يُرضيَها ويحرص على راحتها بأيِّ طريقة، في شيء من اللطف الممزوج بالغرابة، كانا غريبَيْن معاً، غريبَيْن يعيشان تحت سقف واحد، ويتشاركان الأشياء ذاتها أحياناً، تماماً كما هو الحال سابقاً مع شقيقها، حتَّى إنها نسيت تاريخ زواجهما، كان هو الذي ذكَّرها بالأمر قبل شهر، عندما وضع لها على الطاولة قرب مضجعها في السرير عطر ""The One مِن "دولتشي آند غابانا"، كان العطرَ الوحيد الذي تستطيع احتماله، تتسرَّب الروائح من خلاله إلى أنفها الحادِّ بلطف، حيث رائحة الفانيليا الباردة تبتلع قوَّة المسك والعنبر ضمن المُكوِّنات الأخرى، وتتحكَّم بطغيانها، سألتْهُ وقتها بنبرة متشكِّكة عن سبب هذه الهدية المُفاجِئة، ليجيبَها بأنها ليست مُفاجِئة، وبأنها هدية ذكرى زواجهما، أرادت أن تضحك وقتها، وجزء من ذلك أنها نسيت كلِّيَّاً تاريخ زواجهما، لأنها نسيت فعلاً، فور سفرها للدراسة، ذلك الزواج المُفترَض، وأنها متزوِّجة، استغربت أنها لم تشتعل بالخجل لكونها

لم تُحضر له شيئاً في المقابل، علَّلت الأمر فوراً بالانشغال المنهك في رعاية والدتها، وتظاهر هو بالتفهُّم، كما هو الحال بينهما دائماً، قد يكون هذا ما يشوِّشها الآن قليلاً، هي لا تكرهه بالتأكيد، وهناك إرادة في مكان ما بداخلها ترغب منها أن تحبَّه.

وصلا إلى شاطئ "جميرا"، إلى الجزء الصغير منه الذي تُرك مفتوحاً للعامَّة، بعد أن التحقت الأجزاء الأخرى منه بمشاريع الفنادق والمطاعم الشاطئية، وأضحت طابعه العامَّ، كان الذهاب إلى تلك البقعة، يمثِّل تسلُّل جانب أليف وعفوي من قلب المدينة، هادئ، ويخالف طابعها المتأهِّب على الدوام، والمتسارع في وَقْعه، نزَلا مِن السيَّارة في الموقف المقابل للشاطئ، وسارا راجلَيْن حتَّى وصلا إلى الساحل، كان المكان خالياً تقريباً إلَّا من رجل وسيِّدة من جنسية آسيوية يسيران على امتداد الشاطئ بصمت، وسيِّدتَيْن وفتاة صغيرة يجلسنَ على كراسٍ خشبية مقابل الشاطئ، وبدا لوهلة أنهنَّ نسينَ أنفسهنَّ على الشاطئ بعد غياب الشمس.

مدَّ ناصر يده نحو شيريهان، كان يدعوها إلى أن يقتربا أكثر من البحر، شيء ما في نظرته هذه المرَّة كان منسجماً مع العفوية الطارئة والهدوء الخدر في المكان، الذي لا يتوازى مع محيطه العام، سلَّمتْهُ يدها، أومأ لها بأن تخلع حذاءها تماماً كما فعل هو، مضيا نحو الحَدِّ بين الماء والرمل، رائحة البحر قوية وشاقَّة، لكنها ذات تأثير مهدِّئ في الوقت نفسه، شعرت باللسعة الباردة للماء، وأحسَّت به يختلط مع خشونة حبَّات الرمل تحت قدمَيْها ويُذيبها فتغوص قدمُها قليلاً، كانت تراقب ذلك وناصر يشدُّ على كفِّها بحنو، يشاهدهما العابرون،

كرجل وسيِّدة في عقدهما الرابع من العُمُر، السيِّدة بفستان خفيف داكن والرجل بكندورة شديدة البياض، حاسر الرأس.

أظنُّ أنني لا أستطيع أن أشعر بالانتماء إلى أيِّ مكان إلَّا هنا، وإلى مكان صغير آخر سآخذكِ إليه بعد أن ننتهي من هنا.

كانت تلك المرَّة الأولى التي يُخبرها فيها بأمر شديد الخصوصية كهذا، واستغربت أنها فهمت تماماً ما يعنيه دون أن يسترسل في الإيضاح، ووجدت إجابة سؤالها عن ساعات غيابه الطويل، أرادت أن تميل فتضع رأسها على كَتِفَيْه، إلَّا أن غياب الرائحة منه مَنَعَهَا.

بقيا كالمُسَرْنَمَيْن ساعات، خرجا فيها عن قالب الزمن الحالي، كانت الأرض حولهما منبسطة تستوي فوقها بيوت من الطين وأخرى معروشة، والرائحة الحادَّة للبحر في أوجها، حيث الموج الخفيف العفوي يتخلَّل أقدامهما بلسعة باردة، صارا طفلاً وطفلة، هي برأس متوسِّط الحجم بيضاوي وأنف لا يمكن أن تغفل حجمه، وهو الطفلُ إلى جوارها برأسه الكبير الحجم وملامح وجهه المنمنمة.

هيَّا نذهب إلى المكان الآخر.

كبر الصبي والفتاة فجأة، عادا إلى هيئتهما، وحدَّقت شيريهان بناصر في حَيْرَة قبل أن يأخذها إلى السيَّارة في رحلة قصيرة نحو أحد الشوارع المحاذية للشاطئ، قادها بعدها راجلاً في العَتَمَة إلى بَوَّابة بيضاء صغيرة، لم تتنبَّه إليها هي في وسط شارع جميرا التجاري والحيوي، بمطاعمه الفارهة ومقاهيه التخصُّصية وعيادات التجميل

المنتشرة، ثمَّ كانا هناك، وحدهما، وسط خراب لا معقول، أضاء شاشة هاتفه وهو يُنبِّهها على أن تتنبَّه لحركتها، وسط هشيم الأشياء، ثمَّ توقَّفا معاً في منتصف الخراب العظيم، كان منزلاً مهجوراً في منطقة غير متوقَّعة، آيلاً للإزالة، بيتاً من بيوت جميرا التسعينيات الميلادية أو ما يسبق ذلك بقليل، لربَّما كان مُكوَّناً من ثلاث غرف أو أربع، تتوسَّطها صالة يحيط بها فناء متوسِّط وسور خفيض، هذا كلّه تداخلَ وفتحَ التهدُّمُ الغرف كلّها بعضها على بعض، وشرع الصالة على الفناء، لم يبقَ إلَّا السور ليعزل هذا الخراب عن المدينة، مثلَ سرٍّ صغير، لا تكشفه إلَّا لمَنْ تريد، رأت شيريهان" نفسها وسط مَقْبَرَة حَيَّة للذكريات، إذ إن آخر مَنْ سكن هذا البيت خلَّف كثيراً من المتعلِّقات، لكأنه غادره على حين بَغْتَةً، تاركاً بقايا علب قهوة وكُتُباً ممزَّقة وألعاباً وصوراً عائلية لعائلة أجنبية، كما تبدَّى من البياض وشُقْرة الملامح الشاحبة في معظم الصور، راحت تتحرَّك بحذر وسط الركام والأثاث والأشجار الوحشية النابتة بعشوائية، وقصاصات الصحف التي حملت تواريخ حديثة نسبياً، ذلك كلّه وسط قِطَع إسمنتية متساقطة، تُوحي ببدء هدم المنزل لبناء شيء ما مكانه، لكنه هدم مُعطّل، لم تفهم لمَ لمْ يكتمل، وأحسَّت بأن المدينة اللاهثة والأنيقة تتوقَّف هنا قليلاً لتلتقط الأنفاس وتبكي الغِيابات المتسارعة، ولعلَّها أيضاً كانت تتوقَّف لتفكِّر في معنى وجودها، وعلى رغم أنهما كانا بعيدَيْن عن شاطئ البحر بعض الشيء، إلَّا أن رائحته النفَّاذة كانت تصلها، تقدَّمت وسط الضوء الذي خطَّه ناصر، شعرت بأنها داخل المدينة وخارجها في الوقت ذاته، في قلب تناقضها، وعندما رفعت رأسها لترى السقف المتهدِّم للمكان، استطاعت أن تُبصر الأبراج المتراصَّة

البعيدة، أتعرف تلك الشواهق المنبثقة من هذا الهشيم هنا؟ ثمَّ تنبَّهَت لحركة ناصر حولها.

لماذا تشعر بالانتماء لهذا المكان؟

حسناً، لا أعلم، أتذكرين أن الأطفال كانوا لا يلعبون معي؟

أجل.

كنتُ أشعر بأنني منبوذٌ على الدوام، هذا المكان منبوذ مثلي.

تجمَّدت وهي تريد أن تُكمل عبارته: ومثلي أيضاً، لكنها استدارت مواجهةً الجدار خلفها أو أنقاض ذلك الجدار بالأحرى، حيث اتَّسعت مساحة الضوء فجأة، لترى بعدها رجلاً غريباً يخرج من الفناء، كان وجهه مألوفاً بعينَيْن جاحظَتَيْن مُربكتَيْن، إلَّا أنها لم تستطع أن تتذكَّره، وعلى رغم أنه لم يحرِّك فمه، إلَّا أنها سمعتْهُ يقول بوضوح:

"وكان الماء، ثمَّ كانت ذاكرة الناس، ذاكرةٌ تُولد أخرى داخل ركامٍ، ويُعاد بعثها من جديد".

شعرت بيد ناصر على كَتِفِهَا فجأة، وتلاشى الرجل الغريبُ كما ظهر، دون أن يُشعِرها ذلك بالخوف، كما أنها لم تجزع من لمسة ناصر، شعرت بأنها في موقع طبيعي جدَّاً، موقع يلائمها تماماً، زماناً ومكاناً.

عادا إلى المنزل بروحٍ خفيفة، وقبل أن تدخل السيَّارة، التفتت نحو ناصر بامتنان حقيقي:

شكراً.

ابتسم دون أن يجيبَها، ولمحت هي سيَّارة أحمد متروكة في منتصف ساحة المنزل، كان أمراً غريباً، أخبرتْها الغريزة بأن طارئاً لا بدَّ قد حدث، فهُرعت إلى الداخل مسرعة .. وجدت أحمد يتحرَّك بعصبية في الطابق الأرضي قرب غرفة والدتها مُتحدِّثاً بالهاتف، وتقف إلى جواره إحدى العاملات باكية.

نعم، رَقْم المنزل 241، لا أعرف، لا نبض على ما يبدو.

أُمِّي ..

ركضت شيريهان مسرعة إلى غرفة والدتها، كانت رائحة الفورمالديهايد قوية، رائحة من المؤكَّد أن لا أحد قادرٌ على تمييزها غيرها، أدركت رائحة الموت الصارخة، وقد سُجِّي جسد والدتها كما تركَتْها نائمة، بشَعْر خفيف تساقط معظمه من جرَّاء العلاج القوي، وملامح منبسطة، العينان مغمضتان باستكانة، وكشفت الشفتان عن انفراجة خفيفة، كأنها الأثر الذي تركتْهُ شهقة خافتة، هل دهشت أُمُّها من الموت؟ لقد قالت إنها تشعر بأنها ماتت منذ زمن، هناك سرٌّ حتماً، يا الله .. شعرت بالغضب المكتوم من جديد، فها هي ذي أقرب إلى الموت ممَّا تخيّلَت يوماً، إلَّا أنها لم تستطع أن تُدرك السرَّ بعد، وقد لا تفعل أبداً. تكوَّمت إلى جانب جسد والدتها الهامد، احتضنتْها وأخذت تنشج، وراح ناصر ينظر إليها بإشفاق وهو يتمنَّى لو يستطيع أن يمدَّ لها اليد ذاتها التي مدَّها لها قبل ساعات عند الساحل.

لاحقاً، في غرفة تغسيل الموتى البيضاء والخالية من أيِّ تفاصيل تُذكَر ما عدا مصطبة رخامية طويلة، استلقت عليها والدتها، وبضعة صنابير كبيرة حديدية، تابعت شيريهان المُغَسِّلَة وهي تقصُّ أظافر والدتها الهشَّة الصفراء أو ما تبقَّى من أظافر استطالت بهشاشةٍ من جرَّاء العلاج، تذكَّرت أنها في آخر الأيَّام كانت هي مَنْ قصَّ أظافر والدتها، لتُلاحظ إصرار هذه الأظافر على الحياة على رغم تهالك جسد صاحبتها، وضعت المُغَسِّلَة بعد ذلك سدَّادات قطنية في مواضع الفم والأنف والأُذُن، ثمَّ رفعت مع مساعدتها جسد والدتها في وضعية جالسة لتمرِّر يدها على بطنها بلطف مرَّاتٍ ثلاث، التفتت نحو شيريهان وأومأت لها بأن تقترب، اقتربت وراحت تمرِّر الماء البارد على جسد والدتها مع المُغَسِّلَة وهي تزيل عوالق الحياة كلّها من عليه، ارتبكت أمام عُري والدتها في البداية، كان عُرياً مختلفاً عن عُريها الذي شاهدتْهُ وهي تساعدها في الاستحمام في الآونة الأخيرة، عُريٌ تتلصَّص هي عليه كما فعلت مراراً في "أدنبره" دون أن يكون لصاحبه أيُّ إرادة، نظرت إلى عينَي والدتها المغلقتَيْن في طمأنينة، لعلَّها لا تشعر بالحرج منها الآن، راحت تتحسَّس نتوءات الجسد البارزة الكاشفة عن العظام تحت الجِلْد وهي تكاد تختنق من الرائحة الطاغية للسدر والكافور الممزوجَيْن بالماء، كانت الرائحة تُطبق على رقبتها كَيَدٍ ضخمة، أم أن الموت المتجسِّد في أُمِّها هو مَنْ يفعل ذلك؟ كانت في مواجهة مباشرة مع ما تمنَّتْهُ طويلاً، ولكنْ، بأقسى الطرائق، هي مع العدم الأزلي الآن، قريبة منه، تتحسَّسه من غِلَالَة الجسد، لكنها لا تزال عاجزة عن الفَهْم، كرَّرت المُغَسِّلَة عملية الغسل نفسها ثلاثاً، لجسد ضئيل وشاحب، مستعدّ للموت منذ زمن طويل،

ليأتي هذا الغسل، فيكون إجراء شكلياً لا أكثر لذلك الاستعداد، فقد كانت والدتها مستعدَّة لتُدفَن مباشرة فور وفاتها، ومرَّة غسلٍ بعد أخرى، كانت شيريهان تقترب أكثر من موضع ذلك الثقب في ذاكرتها، لتشعر بأن الحفرة التي ظنَّت بأنها استطاعت النفاذ من خلالها لتقترب من الموت في "أدنبره" قد تفاقمت، فتلك الهوَّة التي كانت تستمرُّ في حفرها بجوار سور المَقْبَرَة، هي في الحقيقة بداخلها هي، وكلَّما استعصى الردم زاد أسى التشويش، وفي لحظة لاحقة لم تعد تستطيع أن تفهم أهي حزينة على موت أُمِّها أم حزينة، لأن هذا الموت العنيد لا يزال عَصيَّاً على التكشُّف؟ على أن تراه وتفهمه، هو يتجسَّد في الأبدان دون أن يفضي إلى ماهيَّته الفعلية.

هل تعلم والدتها أنها ميتة؟ سؤال يدور بخَلَدها الآن، وهي تستذكر الموت الذي أخذ والدها نائماً قبل سنة من الآن، هل يُدرك والدها أنه ميتٌ؟ هل يعرفان ذلك، داخل أحلامهما أو كوابيسهما الطويلة؟ هل أسرَّ والدها لوالدتها بجمال الموت في أثناء النوم، فتبعَتْهُ، لتحاكيه في طريقة الرحيل.

نظرت نحو المُغَسِّلَة بعدها وهي تُكمل ما بدأتْهُ بتمسيد الجسد الهزيل وتجهيزه للكفن، كانت سيِّدةً لها جسدٌ ممتلئ، وهي في بداية العقد الخامس على ما يبدو، لها يد قوية، قبضة تحتاجها لتقبض على الجسد الميت فتطوِّع تخشُّبه، وعيونٌ مفرَغة من أيِّ انطباع، لم تعرف شيريهان هل لهذه السيِّدة أمامها مشاعر مختلفة بين موت وآخر؟ هل تعدُّ عدم اكتراثها الحالي جزءاً من لا اكتراثها بجسد والدتها الميت، وبالعيون القليلة التي تراقب عملها، تفكِّر في عدد

الأجساد التي مرَّت بها، في التفاصيل، في استطاعتها أن تعبر على هذا الموت الكثيف يومياً بمثل هذه الاستكانة، هل أدركت السرّ؟ ثمَّ لماذا لم تفكِّر هي قبل ذلك بأن تكون مُغَسِّلَة موتى؟ لكن هذا سيعني أن تقترب فقط من جسد الموت بتكوينه الأنثوي، لأن هناك حواجز مرَّة أخرى حتَّى بعد الموت، يُغسِّل الرجالُ الرجالَ أمثالهم، وتُغسِّل السيِّداتُ السيِّداتِ، لا .. هي لم تكن تريد أن يفصل سور آخر بينها وبين الأجساد كلّها بعد الموت، لقد كان الأمر أكثر فاعلية وحيوية في أدنبره.

عاونت المُغَسِّلَة في لفِّ الكفن الأبيض، كانت والدتها الآن تدخل الشرنقة البيضاء، ارتجفت يد شيريهان في مواجهة ثبات يد المُغَسِّلَة الشديدة:

-ألا يخيفكِ كلُّ هذا الموت يومياً؟

التفتت نحوها السيِّدة في شيء من عدم الفهم، قبل أن تعاود نظرتها المستكينة المفرغة، لتحلَّ محلَّ تلك الاستفهامية.

-لقد نشأتُ مع الموت، أُمِّي كانت مُغَسِّلَة، وقبلها جدَّتي، وقبلهما جدَّتي الكبرى، وهكذا، لقد رأيتُ من الموت أكثر ممَّا رأيتُ من الحياة.

لكنهنَّ جميعاً سيِّدات.

نظرت نحوها المُغَسِّلَة بدهشة، لكأنها لم تتوقَّع السؤال.

طبعاً!

هل أخبرنكِ بشيء بعد موتهنَّ؟

ما الذي تعنينه؟

الأجساد، أعني الأجساد الميتة، هل قالت لكِ حكاياتهنَّ شيئاً؟

لم تعرف شيريهان وقتها أكان الأمر مرتبطاً برغبة السيِّدة في الحديث أم أن وجهها عكس يأساً شديداً وتوقاً مستميتاً للمعرفة، في الوقت الذي كانت فيه المُغَسِّلَة "مريم" تفكِّر في أن هذه الفتاة تحاول أن تعالج فَقْدَها لوالدتها.

ما اسمكِ؟

اسمي؟

أعرف والدتكِ، عرفتُها دائماً، وشقيقكِ والعائلة، لكنني لم أعرف أن لديهم ابنة.

اسمي شيريهان.

على اسم الممثِّلة؟

أتعرفينها؟

ومَنْ لا يعرفها!

حسناً نوعاً ما، أرادت لي والدتي ...، أعني أرادت لي والدتي حياة مثلها.

هذا غريب بعض الشيء.

ربمَّا.

حسنا، الجميع يعرف "مريم" لكنْ، لا أحد يعرف القَدْر الكبير من المعرفة الذي تحمله، "تقدرين تسميني الصندوق الأسود، هذاك، اللي نسمع عنه في الطيايير".

غالبت شيريهان ابتسامة مترددِّة، قد لا تتناسب مع الموقف، وهي تشاهد المكان يفرغ من النسوة التي رافقْنَها في التغسيل، عمَّاتها ومساعدة المُغَسِّلَة؛ استعداداً للصلاة على الميّتة.

أعرف من أجساد السيِّدات الميتات أيَّ حياة باردةٍ أو مشتعلة كنَّ يعشنَ، يقول الجسد الميت الكثير، ولا تستطيع صاحبته أن تتحكَّم فيه بعد الآن، كما كانت تفعل وقت حياتها، هذا البدن لم يعد لها، لقد أصبح ملكاً لنظام أكبر، إلى أن تحين لحظة القيامة الكبرى، رأيتُ سيِّداتٍ لطالما قدَّرهنَّ المجتمع ورفع من شأنهنَّ في الوقت الذي باحت فيه أجسادهنَّ بكلِّ تفاصيل الوضاعةِ التي كنَّ يعشْنَها، حيث الكدمات والخدوش الباهتة بتفاصيل حكايتها المروِّعة على الجِلْد، وعرفتُ في بعض مواضع أجساداً لم تغادر أرواح صاحباتها طواعية، كما أنني شاهدتُ السنوات الطويلة من المرارة على تعرُّجات جلود سيِّدات كبيرات في السنِّ مُتنَ وحيدات، في دار رعاية هنا، أو كنَّ مهملات في مُلحقٍ قَصِيٍّ من المنزل هناك.

لكنْ، ألَا تخبركِ هذه الأجساد شيئاً عن الموت؟

لا يعرف سرَّ الموت إلَّا الخالق، وكلُّنا سنمضي إلى هناك يوماً، حيث ستتحقَّق المعرفة.

لم تكن هذه هي الإجابة التي انتظرتْها شيريهان بالطبع، هذه البديهيات التي تُردَّد دون وعي، تشعر بأنهم يفعلون ذلك لكي يتجنَّب معظمهم مجهود تفكيك السرِّ بكلِّ ما يحمله من تعب عظيم.

أتعرفين يا شيريهان أن أكثر ما يُحزنني ويُخيفني هو شيء آخر غير الموت؟

ما هو؟

أشعر بأنني أخذل سلالة النساء الطويلة قبلي، أغادر دون أن أترك ابنة تمتهن الأمر، رُزقتُ بصبيَّيْن فقط، كنتُ في كلِّ مرَّة أتمنَّى الأنثى، بعكس ما قد ترغب فيه أيُّ امرأة أخرى، لكنْ، لديَّ صبيَّان، وكلاهما مشغولان بحياة السطح إلى درجة لا أعتقد فيها بأنهما سيهتمَّان بأن تكون في سلالتهم مُغَسِّلَة أخرى تستكمل السيرة.

ألم ترغبي بتغسيل "رجل" في مرحلة ما، لعلَّ جسده يُخبركِ بشيء مختلف؟

"واخزياه"، لن أُغسِّل إلَّا زوجي، "له طولة العُمر"، وهذا جسدٌ أعرفه حَيَّاً كما سأعرفه ميتاً، هو الوحيد.

تركت الإجابة المرتبكة لمريم شيريهان معلَّقة بِحَيْرَة بين الأسوار، الأسوار التي تراها دائما حولها دون أن يبدو أن أحداً غيرها يلاحظ

ذلك، التفتت نحو جسد والدتها الضئيل المُكفَّن بالبياض، والكفن الأبيض دلالة أخرى على العجز، صفحة بيضاء شاسعة، لا يملؤها شيء، كُفِّنَت والدتها، ثمَّ سُلِّمت إلى الرجال الذين سيُصلُّون عليها صلاة الجنازة، ثمَّ يحملونها للمَقْبَرَة، يا لها مِن وحشة، أن تحملها تلك الأيادي الخشنة كلّها، يعود أحمد ليبرز في الصورة، بوصفه الابن البِكْر، حامل الاسم والوسم الممتدّ للعائلة، هو مَنْ سيُشيِّع والدته إلى المَقْبَرَة، على رغم أنها تعلم جيِّداً أنها لو سألَتْه عن المرَّة الأخيرة التي جلس فيها معها ليُحدِّثها قبل وفاتها لما تَذكَّر، كان أحمد متماسكاً بشكل مُريب، كأنه أكثر كائنات الأرض رسوخاً، وخفيفاً في الوقت ذاته، له حضور شبحي وهو يؤدِّي ما يلزم لإنهاء الإجراءات المتعلِّقة بما بعد الوفاة، فكَّرت شيريهان في حينها بأن آخِر ما يمكن أن يجمعهما قد تبدَّد، وأنه لا شيء لها هنا إلَّا تلك الغربة التي تقبع هي في منتصفهما بين الأخ والزوج، في صفاتهما الواضحة المعرفة وغيابهما عن المعنى الحقيقي للأُلفة، ثلاثة غرباء في حيِّز إلزامي، وكلُّ شيء بينهم هو صنيعة الواجب، دون وقفات طويلة لتفكيك العواطف أو العلاقات وفَهْمها والتعامل معها بناءً على الفَهْم الفرداني لكلِّ شخص على حِدَة.

عادت لتتجنَّب "ناصر" خلال أيَّام العزاء الثلاثة وهي تتعرَّض بشكل مكثَّف للوجوه والأجساد وروائحها الحادَّة في مجلس العزاء الخاصِّ بالسيِّدات، كانت قادرة على أن تميِّز بشكل لم تستطع أن تفهمه روائح أخرى سكبتْها على المشاعر بين الحزن الحقيقي مِن بعض السيِّدات والآخر المُدَّعى المتكلّف، وبين الجمود الفارغ لكثيرات

منهنَّ، يجلسنَ في صفوف، متراصَّات، يتجنَّبنَ في كثير من الأحيان تلاقي العيون، متأنِّقات، حتَّى في أحلك اللحظات، بروائح عطورهنَّ القوية الخانقة الممتزجة بروائح أجسادهنَّ المرتبكة، المتردِّدة، مهما حاولنَ أن يُغطِّينَ ذلك بقوَّة المظهر الخارجي والعطر، وهذا التأنُّق، هذا البذخ المتضمّن كلّ تفاصيل حيواتهنَّ هو تأكيد يتجاوز التباهي كما تفكِّر هي أحياناً، إنها رغبة مستميتة في النجاة من الاضمحلال، في التمسُّك بالفردانية، في بلاد يقلُّ مواطنوها عن مليون نسمة، وسط الوجوه الأخرى التي تفوقهم عدداً وتلوُّناً، لعلَّ الأمر لا يعني دائماً سيَّارة فارهة أو حقيبة بمبلغ خيالي فقط لغرض المباهاة، كان الناس هنا يجدون الإجابات الخاطئة على سؤال لم يتمكَّنوا من الإمساك به حول كيفية النجاة من الذوبان وسط تلك الضخامة المحيطة كلّها، لذلك فإن الإجابات ستبقى دائماً مرتبطة بالمادَّة، ماذا لو أنها تأخذهنَّ جميعاً إلى ذلك المنزل المتهدِّم، لتشرح لهنَّ أن الذاكرة الموجودة في جيناتهنَّ جميعاً هي شيء مهما تهتَّك ومهما تعالت حولهم الجمادات فهو غير قابل للاضمحلال، الذاكرة هي مُكوِّنهنَّ الحيوي الوحيد والنجاة الأكيدة، تحاول أن تكتم نفسها عن الروائح الخانقة؛ لتنظر نحوهنَّ بشيء من التعاطف، إلَّا أنها تصيخ إلى الوشوشات الخفيفة التي تستطيع من بينها أن تميِّز الحديث عن كونها الابنة الوحيدة التي لا تُشبه فتيات العائلة، ولا أُمّها، تتذكَّر الجدَّة المتوفَّاة في المجلس الأسبوعي وإشاراتها البعيدة و"العرج دسَّاس"، فتشعر بالحَنَق، وتودُّ لو تقف في منتصف سُرَادِق العزاء لتصرخ بهنَّ جميعاً، طاردةً إيَّاهنَّ، لكنها كانت كلّ ليلة من ليالي العزاء الثلاث تشعر بحَنَقِها يُعاد توجيهه نحو "ناصر" الذي رأت بأنه حيَّدها

عن هدفها، لقد شوَّشها بالعاطفة التافهة تجاهه ومحاولة تفكيكها، وقفت أمام المرآة بتعبها الغامر الذي يمتصُّ روحها، وغثيان، وثقل ارتبط بذهنها وجسدها، بالأب الذي غاب قبل أن تتلوه الأمُّ.

يُفترَض أن نعود لمنزلنا، أليس كذلك؟

باغتَها صوت ناصر كطعنة، لقد تناست وجوده معها في حيِّز الغرفة ذاتها في ليلة العزاء الأخيرة.

ليس بعد، لم أنته من توضيب حاجيات والدتي بعد، ثمَّ...

ثمَّ ماذا؟

يجب عليَّ أنا أن أعود إلى "أدنبره".

شعر بتأكيدها الحادّ، تريد شيريهان العودة إلى أبعد نقطة ممكنة عنه، يظنُّ أنها تلومه بشكل ما من خلال هذه الحِدَّة التي تضاعفت بعد وفاة الأمِّ على عدم وجودها مع والدتها لحظة وفاتها، بسبب رحلة البحر تلك، لاحظ أنه تحرص دائماً على وضع مسافة بينهما، وكثَّفت ذلك بأن أخذت تنام خلال أيَّام العزاء في غرفة والدتها المتوفَّاة، راقبها وهي تحمل بعض متعلِّقاتها الشخصية، منصرفة نحو غرفة الأمِّ، وتتجنَّب الالتفات نحوه، أرادت أن يتحوَّل التناسي إلى نسيان فعلي، كانت غرفة أُمِّها تقع في الأسفل، بشكل عمودي تماماً مع غرفتها في الأعلى التي أصبحت منذ أن انتقلا إلى هنا غرفتهما معاً، شعرت في بعض الأحيان بأنه يجثم فوقها، وتمنَّت لو أن هندسة البيت كانت مختلفة، لتنأى بعيداً عنه، وفي غرفة الوالدة أدركت

أنها لن تستطيع أن تفلت بكذبتها هذه طويلاً، ففي الحقيقة لا وجود لأشياء كثيرة تحتاج التوضيب، مجرَّد ملابس قليلة، اكتفت بها الأُمُّ في أواخر أيَّامها، وأدوية، وصندوق من المجوهرات، وصف من العطور العربية الثقيلة المهملة، لعلَّ والدتها أدركت في الأيَّام الأخيرة أيضاً أنْ لا عطر يستطيع أن يخفي رائحة الموت الوشيك التي كانت تتسرَّب من مسامَّات جسدها المتهالك. استلقت شيريهان على السرير، وأوشكت أن تنام قبل أن تسمع قرعاً خفيفاً على الباب، ظنَّت أنه ناصر، وحاولت أن تتجاهل الطَّرْق متظاهرةً بالنوم، لكنها أدركت بعد ذلك من الرائحة الحامضة التي تسرَّبت أنه أحمد.

شيريهان.

أكَّد الصوت أنه أحمد، اعتدلت من الاستلقاء في استغراب، ما الذي جاء به الآن؟ ذهبت نحو الباب وفتحتْهُ لتراه واقفاً هناك في شيء من التوتُّر والحَيْرَة، مدَّ لها يده بصندوق خشبي، الصندوق ذاته الذي أحضرَتْهُ من المنزل القديم، بادلت حَيْرَته بالدهشة وهي تأخذه منه:

أين وجدتَهُ؟

أنا لم أجده في الحقيقة.

كيف وصل لكَ إذن؟

أنا لا أعرف ما هو مِن الأساس، لقد أتت إليَّ أمِّي به قبل وفاتها بأسبوع تقريباً، لم أفهم ما هو، أنا في حقيقة الأمر لا أعرف له أيَّة أهمِّيَّة؟ أظنُّ أنه من الأفضل أن يبقى معكِ.

ألَا تريد أن تعرف ما بداخله؟

لقد هززتُهُ، يبدو خفيفاً، لعلَّها مجرَّد أشياء غير ضرورية.

لو كان الأمر كذلك ما منحتْكَ إيَّاه، لقد كانت مصرَّة على أن أُحضره مِن المنزل القديم.

حسناً شيريهان، هي لم تقل شيئاً معيَّناً عندما أعطتْني إيَّاه، عندما وضعتُهُ في غرفتي كنتُ بين الصحو والنوم، وظننتُ أنني كنتُ أحلم، ووجدتُهُ عندما استيقظتُ، لم أتمكَّن من أن أتحدَّث معها حوله لانشغالي، ثمَّ .. تعلمين .. لقد حدث ما حدث.

لماذا لم تخبرنا عندما كنَّا نبحث عنه؟

"شدراني"، لم أكن أعلم بأنكِ تبحثين عنه من الأساس.

حدَّقت في أحمد بارتياب، هل تصدِّقه؟ لكنه فعلاً لم يشهد حادثة البحث عن الصندوق، تنهَّدت، ثمَّ شكرتْهُ لأنه أحضره لها دون أن يتخلَّص منه مثلاً، ثمَّ وقفا متقابلَيْن في صمت، أرادت أن تدعوه إلى الدخول، لكي يحاولا فتح الصندوق ولو لم يجدا مفتاحه، لكن الرائحة الحامضة منَعتْها، كانت الحاجز الأوَّل، تلتْها تلك النظرة المُفرَغة من أيِّ شعور، الغربة في عينَيْه هي أبرز ما يتبدَّى لها من ملامحه، استأذن ومضى نحو غرفته بخفَّة، وأغلقت الباب وهي تتأمَّل الصندوق المُلغِز من جديد، شعرت بشيء من الابتذال، صندوق غامض قد يحمل سرَّاً بعد وفاة أحد أفراد العائلة، لكنها الحياة، أليس كذلك؟! مجموعة من الكليشيهات، المتكرِّرة بأشكال عدَّة ..

سلاسل طويلة من الأحداث الصغيرة المبتذلة التي نحاول أن نمنحها معنىً، لكي نؤكِّد أهمِّيَّة ما نفعله، وأصالته .. "هه"، وجدت نفسها تضحك ضحكةً قصيرة ساخرة ومُرَّة في الوقت ذاته، قرَّبت الصندوق من أنفها، لتتنشَّق رائحته، راعها قليلاً أن تكون له رائحة الموت نفسها التي كانت ملتصقة بجسد والدتها قبل وفاتها، الفورمالديهايد، هل لهذا الصندوق علاقته بتفكيك الموت؟

قرَّرت بعدها بسرعة أن تكسره، هذه هي الطريقة الوحيدة التي قد تُمكِّنها من معرفة ما بداخله، ذهبت إلى حمَّام الغرفة، كان خالياً تقريباً إلَّا من متعلِّقاتها هي، بعد أن فرَّغتْهُ من حاجيات والدتها، بحثتْ عمَّا قد يساعدها على فتحه، لا شيء ثقيل، لا شيء إلَّا غضبها الملتبس الذي اشتعل جاعلاً إيَّاها تضربه بقوَّة على حَدِّ المَغْسَلَة، تشقَّق جزء منه، فأكملت الضرب بغضب، كانت تُفرِغ كلَّ ما اعتمل في روحها، من حَيْرَة وارتباك وحزن. انكسر الصندوق أخيراً إلى جزءَيْن، كاشفاً ما بداخله، صورة قديمة، وورقة تحمل رَقْماً دولياً .. كانت الصورة لشابٍّ في نحو العقد الثاني من العُمُر في مكان يتَّضح من محيطه العامِّ أنه خارج الدولة .. مكان أوربي غالباً، ولولا أن تاريخ التقاط الصورة، يعود إلى نهاية الثمانينيات كما هو موضَّح على جانبها الطرفيّ الأيسر لظنَّت أن هذا الشابَّ في الصورة هو شقيقها أحمد، هذا وجه مألوف، ويشبه رجال العائلة، أيكون والدها؟ حملت الصورة والرَّقْم وتركت الهشيم في الحمَّام، جلست على طرف السرير، قلَّبت الصورة لترى كتابة بخطٍّ باهت، حاولت أن تقرأ، ومن نسق الكتابة فهمت أنها أبياتٌ شِعْرِيَّة ما عدا السطر الأخير:

عليمٌ بما تحتَ العُيُونِ مِن الهَوَى سريعٌ بكسرِ اللَّحظِ والقلبِ جازعُ

فيجرحُ أحشائي بعينٍ مريضةٍ كما لان متنُ السيفِ والحَدُّ قاطعُ

تلت ذينك البيتَيْن عبارة بالعامِّيَّة

"كيف حال الولد؟"

راشد

تأمَّلت التوقيع، وهي تقارن الاسم بالوجه في الذاكرة، هذا وجه عمِّها راشد .. تذكَّرتْهُ بشكل ضبابي، الرجل الحاضر الغائب، الذي كانوا يتحدَّثون عنه دائماً، لم ترَه إلَّا مرَّاتٍ قليلة، هذا ليس أحمد، لكنه أحمد، يا إلهي، هذا التناسخ المريع وهذه الغربة في العينَيْن والابتسامة غير المبالية وتموضُع الجسد بخفَّة، ثمَّ إنها تكاد تجزم بأن الصور لو كان لها أن تنقل الرائحة لاستطاعت أن تشمَّ الرائحة الحامضة نفسها، وبدلاً من أن يبدِّد انكشاف ما في الصندوق حَيْرَتها ضاعفها بشكل مُربِك، فما الذي تعنيه هذه الأبيات؟ أكان عمُّها شاعراً؟ ولماذا هذه الصورة موجودة في صندوق مع والدتها؟ ثمَّ أيّ ولد؟ .. ولماذا أحجمت أُمُّها عن منحها الصندوق أو فتحه معها قبل أن تمرِّره إلى أحمد؟ لماذا أحمد؟ هل هو أمر مرتبط به؟ هل أرادت أن يدرك هذا الشبه المخيف بينه وبين عمِّهما؟ أليس الأجدر به أن يكون أقرب إلى والدهما، كان أحمد يشبه والدهما فعلاً، لكن هذا الشبه راح يخفت مع الأيَّام، وبقيت منه لمحة، تؤكِّد أن هذَيْن رجلان يجمعها دمٌ واحد، هذا ما تذكره عن آخر مرَّة رأت فيها أحمد ووالدهما معاً.

تُغمض عينَيْها وهي تحاول أن تتذكَّر رائحة عمِّها أو تفصيلاً أليفاً عنه، لا شيء في ذاكرتها مرتبط بحياته، كلُّ شيء يبدأ لديها مِن موته، لقد ظنَّت أن موته سيفتح لها أبواب المَقْبَرَة التي كانت تتوق للدخول إليها، موت عمِّها كان جذوتها الأولى وخيبتها الأولى كذلك. تتذكَّر كيف ذوَت والدتها واضمحلَّت حيويَّتها، طافت ببالها فكرة، التفتت نحو هاتفها، وكتبت الأبيات في محرِّك البحث، تعاظمت حَيْرَتها وهي تكتشف أن الأبيات هنا للشاعر نفسه التي كانت قد رأت أبياته سابقاً على شاهد ذلك القبر الغريب في أدنبره، الخليفة العبَّاسي المقتول، هل تحمل هذه المفارقة أيَّ معنى؟ لماذا تشعر بأن أبيات الخليفة ابن المعتزِّ هذا تطاردها؟ هل هي تطاردها فعلاً أم أنه هاجسٌ تُضخِّمه المفارقة، شعرت بشيء من الابتذال من جديد، الصندوق والسرّ والمفارقة وأحمد، تفكِّر بأحمد ورائحته الحامضة، وتنام، تكرَّر حُلْم رأتْهُ كثيراً وهي تسير حاملةً ذلك الرأس إلى النهر، بتصميم من جسدها ودون إرادة من عقلها.

استيقظت وهي تشعر بالغثيان والمرض، تقيَّأت مرَّات عديدة، وشعرت بأن الموت يتكثَّف حولها طبقات، واحدة تلو الأخرى، عمّها، أبوها، أُمّها، دون أن يكشف عن أيِّ معنى، بل لكي يزيد الالتباس المرتبط بهم، هم الأحياء، ليكثِّف من غضبها.

بقيت في الفراش يومها ذاك حتَّى أتاها ناصر، كان قلقاً عليها، أصرَّ على أن يذهبا إلى المستشفى، حاولت التهرُّب من ذلك، إلَّا أنها كانت مُنهَكَة بشدَّة، حتَّى من فكرة المقاومة.

عبد الله بن المعتزّ

سامرَّاء - العراق، 296 هـ / 909 م

ثمَّ كان أن تمكَّنت النار من ابن المعتزِّ، وقع عليه الأمر كفخٍّ لم يُدركه هو الذي اعتقد بأنه قد يفرُّ منها بالحيلة، فمنذ أن عاد إلى سامرَّاء، بعد أن منحه الخليفةُ المقتدر عهد الأمان، وهو يتسلَّم رسائل الإعجاب من كبار رجالات بغداد من بني العبَّاس الذين راحوا يُثنون على حُسن اهتمامه باللغة وبالعلم والقصيدة، فصانعُ اللغة مُستحقٌّ للسلطة، وقد كان ابن المعتزِّ قانعاً بهذا المجد في أوَّل الأمر، فهو الآن بمحاذاة دِجْلَة، والندى، وبجوار فورات الحُبِّ والجسد، لكنه كلَّما اقترب من النهر بعد العودة تناهت إليه رائحة خفيفة، تشبه رائحة الدم التي عرفها وهو ابن أربعين يوماً، فيشعر بالحَيْرَة والتقزُّز، اعتزل جواريه وغلمانه، ماتت في خاطره شهوة نَشْر وغرام نشوان، أليس هذا ماء دِجْلَة وحياته الطيِّبة؟ فما بال هذه الرائحة تتعالى بوقعها المثير للاشمئزاز؟ ومَنْ هو الآن؟ أهو السلطان أم الشاعر أم كلاهما معاً؟

يعكس الماءُ ذاكرة صاحبه مع وجهه، ويحفظها، كرُكامٍ يتصاعد مع ما يحفظ من ذاكرة الزمن.

قال له رجلٌ على النهر مرَّة، وهو يراه يقضي ساعاته الطوال بمحاذاته محاولاً تفكيك غموض الرائحة:

ألستَ عبد الله بن المعتزّ؟

بلى.

إن الناس يمجِّدونكَ شاعراً، ويتناقلون عنكَ القول، لكنهم سيتناسونكَ ما لم تُكمل الدائرة سلطاناً، حتَّى لو دام لكَ الأمر يوماً وليلةً دون سواهما.

لا شأن لي بأمور السلطة.

أنتَ شأنها، وليست هي شأنكَ، يا فتى.

ما الذي تعنيه؟

اقترب الرجل الذي كان على مشارف السبعين من العُمُر كما اعتقد ابن المعتزّ، وقذف بحصاة صغيرة في موضع قريب من النهر، لتتشكَّل دوَّامةٌ صغيرة.

أنتَ دائرة من الدوائر في هذه الدوَّامة، دوَّامة قَدَرها أن تبتلعنا جميعاً بعد اكتمالها، لتُعاد الحكايةُ من جديد، كالدوَّامة في ماءِ طوفان نوح.

ولِمَنِ النجاة إذن؟ فنوحٌ نجا بقومه؟

هذا ما يقال، لكن أحداً لم ينجُ من ذلك الطوفان، هو خَلْقٌ جديدٌ بدأ بذاكرة قديمة حفظها الماءُ بعد الموت والدم، النهر هذا يعرف ذلك جيِّداً، "وتلك الأيَّامُ نُداولها بين الناس".

وماذا عن آفة النسيان؟

تلك آفةٌ تصيب ذاكرة الذهن، وإني لأتحدَّث هنا عن ذاكرة الدم.

هل للدم ذاكرة؟

وهي أصدق وأرسخ، وما هذا النهر إلَّا شاهدٌ على ذلك، فاتَّبع ذاكرة الدم، واسْرِ فيها.

تركه الرجل بعد قوله الغريب ومضى، ومنذ ذلك اليوم وابن المعتزِّ يشعر برائحة الدم في النهر تشتدُّ، ما الذي له أن يَكسِر اللعنة؟ أعليه أن يُراوغ النار بدلاً من أن يهربَ منها؟ ماذا لو حاول أن يستوي على العرش ليرى كيف سيكون الأمر؟ قالت له جدَّته مراراً إن القصائد ليس لها أن تعالج النار والثأر والغدر فيهما، لكنه قد يكون مختلفاً، فلماذا تحقَّق الأمر لذلك الخليفة الأموي الهارب ولا يتحقَّق له؟ لقد مات عبد الرحمن بن معاوية هانئاً بجوار نخلته الوحيدة في قرطبة، وقصيدته الأخيرة شاهدةٌ على ذلك، لقد نجا مِن النار، لكنهُ لم ينجُ من الغربة، فماذا لو كانت له معجزة النجاة من النار والغربة؟ ماذا لو يأتي بالسلطان هنا إلى سامرَّاء، فتعود إلى دِجْلَة فيها العافية؟

أيكونُ كلُّ ثأرٍ حَسَنَاً؟

ارتحل إلى كبار القوم في بغداد مخالفاً رأي جدَّته "قبيحة" التي لم يكن رفضها أكثر من رفَّة عينٍ غاضبة بعد أن بلغت من العُمُر ما بلغت، جالسهم أيَّاماً، يسمع منهم عمَّا فعل الغلمان الأتراك بحاضرة الخلافة، وتقتيرهم على البلاد والعباد، وكيف أنهم هم الحكَّام فعلاً،

وما المقتدر بالله، ذلك الصبي، إلَّا صورة مهترئة لآل العبَّاس الذين ضاق حالهم ومالهم، وهو .. هو وحده "أبو العبَّاس عبد الله بن المعتزّ بن المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد العبَّاسي" البهي الطلعة الحَسَن القول والمعشر، القادر على أن يمثِّل الصورة المشرِّفة عنهم، الصورة التي ستعود بالخلافة العبَّاسيَّة إلى أيَّام مجدها، آخذ الثأر، القابض من جديد على عزَّتهم وكرامتهم.

رضي بقولهم بعد أن أرضوا غرور الشاعر السلطان فيه، ليبرز ذلك الشخص الذي لطالما توارى داخله، لكنه اشترط عليهم ألَّا يُرفعَ سيفٌ ولا يُراق دم، فخلعوا عليه لقب الخليفة الراضي، وبايعوه في آنِهم على السمع والطاعة، ليستويَ على العرش، بعد أن أُزيح المقتدر بخدعةٍ دون أن يُقتَل، لكنَّ هذا لم يكن كافياً، إذ إن ابن المعتزِّ من فوره رآها تسابق الجموع نحو العرش ..

كتلة النار

تلك التي ظنَّ أنه مُراوِغُها،

قَدَره المترصّد،

تشعُّ وتقترب.

شيريهان

مستشفى الولادة - أبو ظبي، الثامنة صباحاً

تقف أمام مرآة غرفتها في المستشفى بعد تسعة أشهر، تتأمَّل بطنها المتكوِّر، وتفكِّر بأنها تحمل قيدها في داخلها، ستكون ولادتها قيصرية وليست طبيعية، هذا ما أصرَّت عليه الطبيبة، وهي كانت دائماً مشغولة عن توجيهات الطبيبة بتأمُّل فكرة وحيدة تظهر لها على أنها حقيقة بديهية يجب ألَّا يدور أيُّ نقاش حولها: كيف لِمَنْ هو مشغول بالموت أن يمنح الحياة؟ تفكِّر بغضب، وتلعن ناصر في سرِّها، كان وقتاً عصيباً هذا الذي قضتْهُ خلال التسعة أشهر الماضية، حملُها بَتَرَ فكرة عودتها لمواصلة الدراسة مباشرة، فكَّرت بالإجهاض مرَّات عديدة، ولعلَّها حاولت بشكل غير واعٍ أن يحصل ذلك، وإن بدا الأمر عرضياً، لكن هذه الصغيرة، كما عرفت بعد شهرها الرابع من الحمل، مُتشبِّثةٌ بالحياة، بشدَّة.

كان الأمر ممكناً لو أن طبيعة تخصُّصها لا تتضمَّن التعرُّض لذلك القَدَر الكثيف من الفورمالديهايد، وأثار حَنَقَهَا أن "ناصر" يدرك الآثار الجانبية لتلك المادَّة، لقد بحث عن الأمر طبِّياً، كي يسدَّ عليها الأبواب، تتنفَّس بسرعة وهي تشعر بألمٍ في أسفل بطنها، كيف ستُحبُّ هذه الصغيرة؟ كيف ستكون علاقتها بها؟ ثمَّ ماذا عن عودتها إلى "أدنبره" بعد الولادة؟ هل ستتمكَّن من ذلك يوماً؟ تشتاق إلى

أجساد الموتى، إلى القاعة الباردة، إلى الرائحة الخارقة، والراحة التي كانت تُحسُّ بها هناك، حيث تفرُّدها؛ تعود لتشعر بنفسها كمَن جُدع أنفه، على رغم أنها في أقوى حالات إدراكها للروائح، مع الحمل، تضاعف الأمر، لكأنها حاسَّتها المضاعفة أساساً، تضاعفت من جديد بتوهُّج أكبر، لكنها على رغم ذلك أيضاً لم تستطع أن تكتشف رائحة مميَّزة لناصر بعد، ناصر الذي تجنَّبت بقوَّتها كلّها أن يلمسها منذ أن أدركت أمر حملها، كان اقترابه فخّاً، كان ارتيابها حقيقياً دائماً، وليس مجرَّد توهُّم أو توجُّس، لقد زرع فيها قيداً، وأعاقها ... تبّاً!

بعد انقضاء الأشهر الأولى من تعب الحمل، كانت لا تزال في منزل عائلتها، تنام في غرفة والدتها، وتحاول التشاغل عن ثقل الحمل بالتفكير في صورة العمِّ والقصيدة، وكلَّما وصلت بالتفكير إلى أحمد اصطدمت برائحته الحامضة، هو الذي لم يعلِّق كثيراً على نبأ حملها، وبدا كأنه يتجاهل أنهما لا يزالان هنا، هي وناصر، سألتْهُ مرَّة عمَّا هما فاعلان ببيت العائلة، ووجدت أنه تنبَّه لتوِّه إلى ذلك، قال لها على مضض إنه لا يزال مُنهَكاً من موت الأب وترتيب المتعلِّقات، وإنه سيفكِّر في هذا الشأن لاحقاً، كانت في وقتها، تحسد أحمد على فردانيَّته، كان واحداً، فرداً، لا زوجة لا أطفال بالطبع، لا أحد يعوقه عن أن يحلِّق نحو أيِّ مكان يرغب فيه، لكنه كان جاثماً بثقل في المكان، على رغم خفَّته الطارئة، لا تذكر في المقابل أنه ذكر لها مرَّةً أنه يرغب في الزواج وتكوين أسرة، على رغم أن والدهما كان طرح عليه الأمر عندما تزوَّجت، طرحٌ كان أشبه بتلميح خَجول، عالجه أحمدٌ بالتجاهل، إذ يحقُّ لأحمد دائماً على رغم كلِّ شيء ما لم يكن يحقُّ لها.

تقطع الممرِّضة أفكارها، وتلتفت هي نحوها بجِدَّة:

علينا أن نبدأ تحضيركِ للعملية، هل أنتِ مُستعدَّة، لا شكَّ أنه يوم عظيم!

كانت بهجة ممرِّضات قسم الولادة تصيبها بالاشمئزاز، هي ليست مُستعدَّة، لم ترد ذلك من الأساس، كيف تشرح لها أن ما تشعر به بشكل دائم هو أنها تحمل قيدها الأبدي بداخلها، وأن الخيار على رغم كلِّ ما هو ظاهر أمامهنَّ من امتلاكها لزمام أمورها، لا يعود إليها، بل إلى صاحب هذا الفخِّ، ناصر.

دلف ناصر خلف الممرِّضة، وأشاحت بوجهها عندما رأتْهُ، تمنَّت لو يتلاشى كأنه لم يكن، حاملاً معه هذا الانتفاخ الذي في بطنها، تلك النطفة الملعونة، لقد شوَّشها بالعاطفة التافهة، لقد دمَّرها، تُصرُّ بأسنانها، وتقبض بقوَّة على مُلَاءَة السرير الذي استلقت عليه، والممرِّضة تستعدُّ لقياس ضغط دمها تحضيراً للعملية.

ارتاعت الممرِّضة لمَّا كشفت عن الذراع، هذه ممرِّضة جديدة، غير التي اعتادت عليها، وتظاهر ناصر كعادته، بأنه لا يُلاحِظ تلك الخدوش الآتية من محاولات مستمرَّة للأذى القسري، بدأ الأمر بعد انقضاء تعب أشهر الحمل الأولى، وهي تحاول أن تحاكي الشقَّ الأوَّل الذي تذكره من درس التشريح، على ذراعها، كانت وسيلتها الوحيدة، للتشبُّث بما بقي لديها من ذاكرة الموت الذي هناك، كانت تريده وتتشَّهاه، وتحاول أن تجعله حاضراً، ولو كانت الجثَّة هذه المرَّة هي جسدها الحَيّ، راقب ناصر تحوُّلاتها، أصبحت شيريهان، تلك الكتلة

المشتعلة، تُخيفه، لم يعد الأمر مثيراً بعد الآن، خصوصاً مع ملاحظته ازدياد الخدوش وعمقها، لم يعرف أهي تحاول أن تنتحر أم أن تتخلَّص من الطفل؟ والصمت بينهما عقَّد الموقف، كان حلُّه الوحيد هو أن يتجاهل الأمر، متمسِّكاً بفكرة الطفلة القادمة، وبحرصه على أن يتأكَّد أن شيريهان لا تزال على قيد الحياة كلَّ ليلة، وهو يتسلَّل إلى حيث تنام بعد منتصف الليل، ليتأكَّد من تنفُّسها ونبضها وعدم نزف جروحها بشدَّة، لقد أراد الصغيرة مهما كلَّف الأمر، لعلَّها كانت رغبةً منه في معالجة حالة الحُبِّ المعقَّدة هذه، أو لعلَّها تكون الأمل في حالة حُبٍّ مكتملة بينه وبين شيريهان.

كانت شيريهان في غرفة العمليات واعيةً تماماً، تراهم من خلف الحاجز الطبِّي القماشي الذي وُضِع بين صدرها وبطنها، تشعر ببرودة خَدِرَة في بطنها، والطبيبة تبدأ العملية القيصرية لتحرير تلك اللعنة، أرادت أن تشهد تلك اللحظة، وعارضت رأي ناصر في التخدير الكامل ما دام التخدير النصفي مطروحاً، كرهت فكرة ملازمته إيَّاها، كانت تعلم أنه يخشى أن تتخلَّص من هذه الطفلة في أيِّ وقت، حدس داخلي أعلمها بذلك، وعلى رغم أنها اختارت أن تكون طبيبتها في إحدى مستشفيات أبو ظبي وولادتها كذلك، بعيداً عن دبي وناصر، إلَّا أنه كان لا يزال مُصرّاً على أن يُفرِّغ نفسه تماماً ليكون بجوارها، بحضوره المريب، الكارثي الآن.

تلعنه في سرِّها ألف مرَّة.

تفكِّر بشكل مُلِحٍّ وهي تَلمَح قُفَّاز الطبيبة الملطَّخ بالدم ومعه

مشرطها اللامع، بالطفلة الغريبة التي رأتْها في الحُلْم، تلك التي كانت تريد أنفها، لتمنحها الفم، هل كان اسمها "شَمَّا"؟، أرادت أن تصرخ بشكل متفجِّر، على رغم أنها لا تشعر فعلياً بأيِّ ألم، تسارعت نبضات قلبها، وتعرَّقت بشكل جنوني، وبين الصحو والغياب رأت الطبيبة تأمر بتخديرها بالكامل وسط حالة من الاضطراب في الغرفة.

عندما استيقظت، كانت في غرفتها السابقة للعملية، أرادت أن تعتقد بأن كلَّ ما مرَّت به منذ أن وصلها نبأ حملها هو مجرَّد حُلْم، لكن حضور ناصر دمَّر ذلك، كان يحدِّق فيها بحنانه البليد، مُمسِكاً يدها التي سحبتْها فوراً بحركة حادَّة لمَّا تيقَّظت حواسُّها، ندَّت منها آهة لمَّا شعرت بالألم:

ما الذي حدث؟

حمداً لله على سلامتكِ.

ماذا حدث؟!

تقول الطبيبة إنكِ تعرَّضتِ إلى ما يشبه النوبة القلبية خلال العملية، لكن الأمور مرَّت بسلام.

ماذا عنها؟

أتعنين الطفلة؟ حسناً، هي بخير، وضعوها في الحاضنة إلى حين استفاقتكِ، أظنُّها تُشبهكِ قليلاً.

أريد أن أراها.

سأطلب منهم إحضارها.

ثمَّ حدث أن رأتْها، الطفلة الصغيرة، قيدها الذي تحرَّر ولم يُشعِرها بالتحرُّر، هذا كان أوَّل ما فكَّرت به وهي ترى الصغيرة، مُغمضةَ العينَيْن، وبملامح غير واضحة بعد.

أظنُّها تُشبهكِ.

حملت الصغيرة، هي في الحقيقة تشبه جميع الأطفال حديثي الولادة الذين تراهم دائماً في الصور والإعلانات والأفلام، لا شيء مميَّز فيها لولا أنها .. مهلاً، هي لا تستطيع أن تميِّز لها رائحة أيضاً، أربَكَهَا الأمر، تذكَّرت حديثاً عابراً لوالدتها عن رائحة الأطفال، ورائحتها ورائحة أحمد التي تميِّزها كأُمٍّ عن روائح بني البشر كلّهم، وكثافة الروائح الغامرة الحادَّة التي مرَّت بها حتَّى اصطدمت بناصر، ثمَّ .. هذه الطفلة .. التي تُعدُّ إخفاقاً جديداً لحاسَّتها الخارقة. التفتت نحو ناصر بحِدَّة، أرادت أن تقول له إن ما تخشاه قد وَقَعَ، سلالة من عديمي الرائحة، كيف لها أن تُحبَّها أو ترتبط بها؟ كيف لها أن تفهم شعورها تجاهها؟ أرادت أن تصرخ به ليأخذ هذه الطفلة الغريبة ويخرج، لكنها راحت تكزُّ على أسنانها بغيظ.

هل تتألَّمين؟

نعم .. أريد أن أعود للنوم من فضلكَ، هل لهم أن يأخذوها؟

استغربَ قليلاً من طلبها، هي لم تُكمل معها خمس دقائق، ثمَّ إنه لم يخضْ معها في حوار تسمِيتها بعد، ماذا سيكون اسمها؟ هذه الصغيرة التي لمَّا رآهم يخرجون بها من غرفة الولادة شعر بأن له حقَّ

الانتماء أخيراً، لم يعد الأمر مرتبطاً بالبحر فقط، لقد وجد عالمه في هذه الصغيرة، فكَّر بأن يطلق عليها اسم "بحر"، وأراد أن يشارك شيريهان الفكرة والشعور، تخيَّل أن تسأله عن الاسم ليُطلعها على ذلك، تخيَّلها تذوب حناناً ولهفة حين ترى الصغيرة، وبأنها ستمدُّ لها يدها، اليد ذاتها التي مدَّتْها له على البحر ليجلسَ بجانبها، مُحتضِناً إيَّاها والطفلة، لكنَّ أيّاً من هذا لم يحدث، كانت كمَن يُغلق الباب في وجهه بحِدَّة، كما هو الحال دائماً.

استلزم الأمر مكوثها أسبوعاً آخر في المستشفى، حتَّى تأكَّد أنْ لا مضاعفات للعملية، قبل أن يعود الجميع إلى منزل الأُمِّ الغائبة، اختارت شيريهان فوراً أن تعود إلى غرفة الأُمِّ، لم تناقش "ناصر" في الأمر، ولم تحاول أن تُسوِّغ، هي ليست مُجبَرَةً على ذلك بعد الآن، كانت تشعر بأنها مَغدُورة طوال الوقت، وبأنه يحقُّ لها أن تنتقم بأيِّ شكل ممكن، هذه الطفلة عديمة الرائحة، تُشعِرها بأن أنفها مجدوعٌ حقّاً، تتحسَّسه إذا اقتربت منها، ويُربِكها أن هذه الصغيرة تذكِّرها بنفسها يوماً بعد آخر، وتلك الملامح المسطَّحة للرُّضَّع تنتفخ وتتمايز كاشفة عن ملامح خاصَّة بها، كان أوَّل ما تبيَّنَتْهُ منها أن لها أنفاً كأنفها، هل لهذا الأنف القدرة الحادَّة التي تملكها هي أم أنه شبَه شكلي فقط؟ تفكِّر وهي تمرِّر يدها على ملامحها الأُخَر، عيناها البُنِّيَّتان الواسعتان، وشفتاها المنمنمتان الصغيرتان ورأسها الدائري باستواء، والبشرة الناعمة بسُمْرة خفيفة جدّاً .. كانت تشبهها أكثر ممَّا تشبه "ناصر"، في الحقيقة لا تستطيع أن تتبيَّن لناصر أيَّ أثر في شكل الطفلة، لكن أثره الطاغي فيها هو غياب الرائحة.

ماذا سنُسمِّيها؟

يسألها ناصر يومياً وتشعر هي بالعجز، كيف لها أن تسمِّي ما لم تتبيَّن شعورها الحقيقي تجاهه، الأسماء كلّها كانت ضرباً من العبث من موضع عجزها ذاك، تتذكَّر اسمها "شي ري هان" وتعود لتتذكَّر "شيريهان الحقيقية" وأنفها المنشود الذي أرادت لها والدتها أن تحصل عليه، لقد كادت تنسى شيريهان تماماً والمصادفة المربكة في الطائرة، على رغم أنها عادت منذ فترة قريبة لتملأ شاشات التلفاز، يبدو أنها تحرَّرت من الثقل بطريقة ما، وعادت لتستأنف التحليق، لعلَّها استطاعت أن تُدرك السرَّ، أمَّا هي، فإنها شيريهان الأخرى المزيَّفة، السجينة والمقيَّدة، العالقة مع رجل وطفلة دون رائحة وقَدَر قسري مُبهَم، تفكِّر في ماهية هذا الكائن الصغير الذي يرقد بجوارها يومياً، يبكي، ويتعطَّش لكي يمتصَّ منها الروح، كان عليها أن تُنقذ نفسها منه، فكان أن قرَّرت أنها لن تُرضِعَها بنفسها، تترك العاملة المنزلية تُعدُّ لها حليب الأطفال، وتجلس وهي تشاهدها لتُطعِمَها، طلبت من العاملة أن تُلازِمَها ليلاً في غرفة أُمِّها، لكي تُطعِمَها إذا استيقظت باكية، لم تُرد أن تقترب منها، مُتجنِّبةً أن تكشف لها عن عجزها أكثر فأكثر ..

عليها أن تفعل شيئاً ..

يجب عليها أن تفعل شيئاً ..

ماذا نُسمِّيها؟

يعيد ناصر السؤال بإصرار، ويشعل جُذوَة غضبها أكثر، تعود لتلعنه في سرِّها، ثمَّ عادت لتجد نفسها على أرضية الحمَّام، تُحدِث شقوقاً طولية في ذراعها بالشَّفْرَة وهي تتخيَّل أنها عادت إلى أدنبره، إلى مكانها الأثير، بين الجثث، تَحفِر الأجساد بحثاً عن سرِّ الموت.

أحمد يُربِك الطفلة أيضاً، تستطيع أن تُلاحظ أنها دائماً تنفجر باكية كلَّما اقترب منها خالها، "خالها"؟ تفكِّر في التسمية، وهي تتذكَّر الصندوق، ولغزه المبتذل، يتعاظم شعورها بالكليشيهيات حولها، وبالحَيْرَة التي لا تأخذها إلى أيِّ مكان سوى حالة من السُّعَار الروحي الدائم، تودُّ لو تصرخ بالعالم، لكن صرختها دائماً تتفجَّر في الداخل، تشتعل بحرائق صامتة، وكلُّ شيء حولها يتضخَّم، الأماكن والشعارات والتسميات والأسرار، على حين تقترب هي من الاضمحلال، مُحاوِلةً ما استطاعت أن تتمرَّد على ذلك باشتعالها المستمرّ.

عادت تحلم بذلك الرأس يومياً، تحمله إلى النهر لتُلقيه إلى العمق، وتشعر هي بحالة من الاستكانة والرضا بعدها، تتجاهل وهي تغطُّ في ساعات نوم طويلة، سؤال ناصر عن اسم الطفلة المجهولة حتَّى الآن، وتغضُّ الطرف عن إصراره اللاحق عليها بضرورة زيارة الطبيب للبحث في أمر النوم هذا، هي تريد أن تنام فقط، متعبة، هذا هو كلُّ ما في الأمر، تريد أن تحلم لكي تجد سكينتها هناك، عند النهر، وهي تُلقي بالرأس في المجرى، لكي يجد مساره، وتشعر هي بأن لها مساراً جديداً قد يتخلَّق منه، بقيت على حالها ذلك عشرين يوماً بعد الولادة، ثمَّ استيقظت في الليلة الواحدة والعشرين، وهي تُدرك ما يجب عليها فعله، لقد حدَّثها بذلك الرأس المقطوع للرجل في

الحُلْم، الذي تبيَّنت هويَّته أخيراً، لقد كان رأس الشاعر الذي قرأت أبياته على شاهد القبر الغريب وخلف صورة عمِّها، الخليفة المقتول، "أبو العبَّاس، عبد الله بن المعتزّ".

السرُّ في الأنف الأفطس، فإن غاب استقامت الحياة.

قال لها ذلك وهي تحمله إلى مجراه في النهر المألوف، الذي تشعر بأنها تعرفه، على رغم أنها لم تقف على ضفَّته يوماً، استيقظت ذات ليلة وهي تشعر بأن الإرادة الآن لا تعود إليها، بل إلى جسدها، سمعت نفسها تأمر العاملة بأن تعود لتنام في غرفتها، مُتعلِّلةً بأنها تريد أن تبقى وحدها مع الطفلة، لكي تعتاد عليها، راقبت ارتباك العاملة من هذا الطلب المباغت في منتصف الليل دون أن يحرِّك فيها ذلك ساكناً، ثمَّ رأت نفسها تتوجَّه إلى الحمَّام، حيث احتفظت بالشَّفْرات الحادَّة التي كانت تحاكي من خلالها شقوق دروس التشريح على جسدها، تناولت بتصميمٍ واحدةً منها، تأمَّلت وجهها في المرآة، وساورها شعور غامض بأن ما تراه في المرآة الآن ليس وجهها، بل وجه تلك الصغيرة التي ساومتْها يوماً على أنفها مقابل الفم، ستمنحها أنفاً طازجاً الآن على كلِّ حال، ستمنح "شَمَّا" التي عرفتْها دون أن يؤكِّد لها أحدٌ ذلك ما أرادت دائماً. التفتت إلى حيث كانت الصغيرة المجهولة الاسم ترقد في استكانة، رفعت الشَّفْرة، قرَّبتْها من ذلك الأنف الصغير الأفطس الآخذ في النموّ، ثمَّ حسمت الأمر .. تقترب، تلمس الرضيعة، تقرب نصل السكِّين، تُمسك أرنبة أنفها، والصغيرة تضحك، ثمَّ تباشر البَتْر، تبتر، تنتفض الصغيرة وتصرخ، تواصل الجزَّ، تترك النصل ليسقط من يدها، دمٌ حارٌّ على الأرض، تسقطان معاً،

وفي عينَي الثانية كان يُطلُّ رعب الأولى، يرتجف الجسد الصغير بألم، ويرتجُّ الجسد الأكبر في ضحكٍ مكتوم، إرادتها تتحقَّق أخيراً، ثمَّ دمٌ متخثِّرٌ على الأرض، وكتلتان لحميَّتان تجاورانه.

حرَّرتْها ..

وتحرَّرت.

شَمَّا

ديرة - دبي، 1935 - 1936 م

رأس

رأسان اثنان

ثمَّ ثلاثة

الثلاثة تحوَّلوا إلى عشرة خلال أسبوع

وفي الأسبوع الذي تلاه تضاعفت العشرة إلى عشرين

عشرون رأساً، وأنينٌ واحد، عطونةٌ تؤكِّد اتِّحادهم، ومن ملامحهم ينزُّ دمٌ غامقٌ مُعبِّرٌ عن الكارثة.

كانت "شَمَّا" تراقبهم من أعلى المرتفع، وتحاول استشعار الرائحة النافذة التي يتحدَّث عنها الجميع، هي الأقرب إليهم من موضعها ذاك، وتتمنَّى في كلِّ مرَّة لو تحمل الريح إليها العدوى، فتنضمُّ إليهم إلى أن تحين لحظة الموت، لكنها كانت تفلت دائماً، تنجو، لعلَّه أنفها الغائب، لعلَّه وباءٌ تنقله الرائحة، وهي بعد أيَّام مجدها في تقصِّي الرائحة، ليست إلَّا "شَمَّا" ذات الأنف المجدوع.

تراقب مصائر محتومة، وتستغرب من تلهُّفها إلى أن تكون مكانهم،

بين المرتفعين القاحلين بمحاذاة الساحل، المنفى الاختياري لكلِّ مَنْ أصابتْهُ عدوى الجُدَرِيّ، يذهب إلى هناك، يحفِر قبره بيده، يدفن الجسد، ويترك الرأس خارجاً كعلامة، كوصمة عار بتشوُّهات الملامح والتقيُّحات الضارية كلّها، حتَّى تحين لحظة الموت، ليبقى بوجه معلَّق، ينتظر انقضاء لحظة الوباء، حتَّى تنطفئ الروح، ويميل الرأس المتعفِّن .. العلامة الفارقة على فِرَار الروح.

تستذكر بداية الأمر، مع "عبُّود بوراسين"، ارتفاعٌ مُباغِت في الحرارة، ثمَّ نتوءات مُقرِّزة بدمامل مائية راحت تنتشر على كامل جسده، كان يجرُّ بدنه جرَّاً، قبل أن يتشوَّه، لم تنفع معه علاجات العطارة، ومع انتشار الرائحة ذهبوا به إلى الطبيب الإنجليزي في القاعدة العسكرية البريطانية في إمارة دبي، كان أمل أهله الوحيد كشف سرّ هذا المرض، استقبل الطبيب حالته مرتبكاً أوَّلاً ثمَّ هلِعاً، لقد عرف الوباء، إنه "الجُدَرِيّ"، وعليه أن يعزل نفسه بعيداً عنهم.

أخذ "عبُّود بو راسين" جسده الذي شكَّل علامة الكارثة المقبلة، واتَّجه إلى الساحل، لقد دنت النهاية، ولعلَّها تكون بالقرب من أكثر مكانٍ تاقَ إليه طوال حياته، دفن جسده وأبقى راسه الكبير الذي لطالما كان كرأسَيْن مدمجَيْن، لكنه اختار موضعها بين كثيبَيْن، لقد كان مرض الرائحة، فما هما إلَّا يومان حتَّى ظهرت الأعراض نفسها على شقيقه محمَّد، كانا ينامان في الغرفة نفسها، يعبَّان من الهواء نفسه، ومِن العطب المحتمل والمصير الوشيك ذاته.

فعل محمَّد الشيء ذاته

جسم مدفون

ورأس مشوَّه في الخارج

إلى أن يميل، وتنتهي الحكاية ..

تبع محمَّد

سعيد،

علي،

مبارك،

منصور،

ثمَّ غالية، المرأة الأولى التي تصاب بعد أن ظنَّت السيِّدات أنهنَّ مَحميَّات منه على نحو ما، وظنَّت شَمَّا أنه لا يصيبها، ليس لأن أنفها مجدوع، بل لأنها واحدة منهنَّ، لكنها كانت مجرَّد لحظة مواتية، قد يتمُّ فيها التقاط العدوى، وظلَّ الأمر غامضاً عليها .. كانت معهنَّ دائماً بعد أن جُدع أنفها، لم تعد محتفظة بمَزِيَّتها السابقة التي كانت تجعلها دائماً خارج حيِّزهنَّ المحدود، لم تعد تستطيع أن تكون في أيِّ مكان تريده وسط أروقة "سوق الدويات"، لتختبر التوابل والروائح، وتُخبر عن أصلها وتكوينها، ثمَّ إنها كانت تُخيف أطفال الحَيِّ، وتُنفِّر قوافل التجَّار الآيبة، فمَن يرغب بأن يصادف مسخاً بشكل يومي في السوق؟ كان يكفيهم "عبُّود" برأسه الضخم الذي تغاضوا عنه، لكن الأمر كان مختلفاً معها، لكأنهم أدركوا بأنها أنثى فجأة، وأن ما يقع على الصبي لا يصحُّ بأيِّ شكل أن يقع على الفتاة، ولو كان نبذاً

وتشوُّهاً، وفيما تفشَّى الأمر بين سيِّدات الحَيِّ بعد غالية كعقدٍ انفرط وتساقطت حبَّاته .. بقيت هي خارج المعادلة، وطيفٌ من مجدها القديم يلوح في الأُفق، ويجعلها نوعاً ما مختلفة، ليس شكلياً فقط.

تحلم "شَمَّا" يومياً بتلك الحادثة، بالنصل البارد ممتزجاً بدمها الحارِّ الذي تدفَّق، معاً يصنعان هزيمتها، لا تعرف أكان ذلك كابوساً أم حُلْماً، لأنها تستيقظ دائماً بشعور الذي يطفو على الماء، بعد أن ينزف دمها بشدَّة وتصرخ، ثمَّ ترى شقيقها يركض مبتعداً بجزع، كانت تستطيع أن تميِّز ذلك كلَّه بمَرأى العين دون أن تتمكَّن كعادتها من خلط تلك الرؤية بروائح مميَّزة تسبقها، من المؤكَّد أنها ستستنشق الرعب والصدمة، لكنها لم تستطع إلَّا أن تُبصِر بألم، وهي تتعرَّف على أوَّل علامات فقدانها لقوَّتها المميَّزة ، سبر الشعور في الرائحة، لقد ظنَّ "عزيز" أنها ستموت، خُيِّل إليها بين الصحو والإغماء أنها رأتْهُ يتوقَّف قليلاً مُتلفِّتاً عند الشاطئ، مُتأمِّلاً يده، قبل أن يُسرع نحو الماء غاسلاً إيَّاها من أثر الجريمة، ويختبئ عدَّة أيَّام، بعد أن وجدها الصِّبيَة على الشاطئ فجراً، لكنْ، يا للغرابة، لم يشكّ فيه أحد، ولم تتكلَّم هي، كانت تخاف أن يجعلها "عزيز" تخسر عضواً آخر إنْ هي كشفت عن سرِّ غياب أنفها، نُسِجَت بعدها كالعادة خرافة صغيرة عن كون الجنِّيَّة التي منَحتْها سابقاً أنفها الخارق لسلالة التوابل تنبَّهت إلى الخطأ الذي ارتكبتْهُ عندما منَحت قوَّتها الخارقة للفتاةِ بدلاً من الفتى.

توازَيا بعدها كثيراً، هي و"عزيز"، لا ترفع عينَيْها أبداً، ولا تفكِّر في أن تسأله عمَّا جعله يجرِّدها من مصدر قوَّتها، لم تكن تعرف ولن تعرف أبداً ما الذي يدور بباله، وما الذي يعنيه له ما فعَله، لكنها تدرك

حضوره المُريك الآن، الوحشي، المخيف، وتطوف ببالها دائماً تلك الرائحة الحامضة التي كانت قريناً له، مُفضيةً في أوَّل الأمر إلى انعدام الأُلفة بينهما، ثمَّ إلى الكراهية التي تبيَّنتْها لاحقاً، ويتحاشى "عزيز" في المقابل أن يتحوَّل هذا التوازي إلى تقاطُع، بكلمة أو بنظرة من عينَيْها مباشرة إلى عينَيْه، لقد خشي أن تُدرك هلع روحه، خشيته الدائمة من أن تُخبر أيَّ أحد بما حدث على الشاطئ في يومهما ذاك، كان يفكِّر أحياناً بأنه لو جرَّدها مِن لسانها مع أنفها لَما عانى من هذا الهاجس الدائم مرهوناً بلحظة قد تعود تستجمع فيها رباطة جأشها لتكشف الأمر، وعلى رغم ذلك التحاشي المُتعمَّد إلَّا أنهما كانا حاضرَيْن في حيِّز البيت الصغير يومياً في تفاصيلهما، تسأل "شَمَّا" نفسها في لحظات استنارة نادرة: كيف للقاتل أن يرى ضحيَّته يومياً دون أن تظهر منه أيُّ بادرة أسف؟ قبل أن يعود ليلفَّها ذلك الشعور الغريب الذي يخبرها بأنها نالت ما استحقَّتْهُ، وبأن "عزيز" كان يجب أن يفعل ذلك .. لكنْ، ما الجريمة في هذا العالم المنضبط؟ الأدوار بين الرجل والمرأة هنا مرتَّبة تِلْقائياً، ولكنْ، لا أحد يستطيع التعامل مع الحالات الاستثنائية لأيٍّ منهما لو خرج عن دوره المُفترَض، كلّ حالة استثنائية تصنع قصَّتها بنفسها، بين أن تكون في قمَّة الهرم الاجتماعي أو في أدناه .. خارجة إلى منطقة النبذ، كان من الغرابة أنهما تشاركا الأمرَيْن، خرج هو من منطقة النبذ لضعف حاسَّة الشمِّ لديه إلى قمَّة الهرم الاجتماعي، بعد أن خسرت هي قمَّة الهرم الاجتماعي مع أنفها الذي جُدع، وانتقلت إلى منطقة النبذ.

لم يستطع "عزيز" أن يميِّز الروائح أبداً، حتَّى بعد الحادثة، نظر إلى

الأمر كجزء من سلسلة الإخفاق الطويلة الذي اشتهر به، لكنه بعدها، وعندما أدرك أن الأمر كان بمثابة نجاحه الأوَّل الذي احتاج صبراً وتراكماً ليظهر متى استوعب الناس أنها أخيراً جُرِّدت من قوَّتها، ليكون رجلاً بجوار الفتاة التي لم تعد تملك أيَّة مَزِيَّة، وهذا ما كان كافياً ليحسم الأمر، تفكَّر "شَمَّا" أحياناً في أن تسأله عن مكان أنفها، هل رماه في البحر؟ هل هو في مكان ما مخبَّأ لديه؟ لكن سؤالها له سيعني أن يتقاطعا، يعني أن يُقِرَّ كلٌّ منهما بأن ما حدث ليلة الشاطئ في ذلك اليوم قد حدث فعلاً .. بفعل بشري متعمَّد، وليس بتدبير من عالم الجنِّ الماورائي.

عندما أدركت "شَمَّا" ميلان رأس "عبُّود بو راسين" على الشاطئ الذي ما زالت تراقبه، لفَّها شعور غامر باليأس، شعرت بأنها الآن فعلاً خسرت كلَّ شيء، لقد كان الوحيد الذي بقي على حاله معها، وأدهشَها عندما أخبرها قبل مرضه بيومَيْن أنّ عرض الزواج منها لا يزال قائماً، كانا سيُشكِّلان عائلة عظيمة من المسوخ، فكَّرت في نفسها ذلك اليوم قبل أن تلومها على عجرفتها.

بعد غالية،

كانت أسماء،

فسعاد،

فآمنة،

ثمَّ نورة،

لم تحتمل تراكم الرؤوس على السطح، لم تحتمل الأنين، وقرَّرت في ليلة ما إن تذهب إلى الأسفل، لا شيء لديها لتخسره، ما الحياة التي ستخسرها على كلِّ حال؟ هي لن تخسر، على الأقلِّ، هناك عضو جديد إن تحدَّثت للموتى عمَّا حدث بينها وبين "عزيز" في ذلك اليوم، لقد كان الكتمان يحوِّلها شيئاً فشيئاً إلى قنبلة موقوتة من الغضب قابلةٍ لأن تنفجر في أيِّ وقت، يجب أن تذهب إلى هناك، بل لعلَّها ستكسب إنْ هي فعلت، أن تكون في منطقة اللاتباينات، حيث يتساوى الجميع في عطبهم، حملت قربة ماء، وسلَّة من جريد النخل ملأتْها بالتمر، وقصدت العالم السفلي الجديد، انسلَّت ليلاً كيلا يثير خروجها من البيت أيَّ ارتياب، فقد باتت لا تغادره إلَّا لِماماً بعد حادثة جدع الأنف.

الليل يسري بصوت الأنين المكتوم القادم من هناك، وسكَّان الحَيِّ تشاغلوا عن الصوت بالرائحة، فلا شيء يضاهي رائحة المرض الزاكمة التي لفَّت الحَيَّ من أقصاه إلى أقصاه، وانتقلت كسلسلة مرعبة من حَيٍّ إلى آخر، في أثناء البيوت المعروشة. كانت رائحة تشبه رائحة الأسماك النافقة بأعداد هائلة، هذا ما سمعت "شَمَّا" الأهالي يتناقلونه عن تجسُّد الرائحة، رائحة هي تعرف موضعها من الذاكرة، وتعيد إلى ذهنها تلك الفكرة عن أنهم كانوا حتماً أسماكاً في مرحلة ما، وأن أجسادهم إنما هي تعود فقط إلى أصلها بعد موتهم، أو وهم في الطريق نحو الموت.

نظرت من الأعلى مرَّة أخيرة، واستجمعت ما تبقَّى لها من شجاعة ممكنة، نزلت بخطوة حَذِرَة بعد أخرى، تقترب أكثر وتتبيَّن مدى التشوُّه

والتفسُّخ الذي استشرى في المكان، بدت الرؤوس كأنها رؤوس حجرية نحتتْها الرياح بنتوءات بارزة مقزِّزة، هي في الأصل دمامل ضخمة متراصَّة جنباً إلى جنب، كاشف عن سرعة تحرُّك المرض على الجِلْد، كان المتأمِّل مِن قرب لا يستطيع أن يميِّز بين ما تبقَّى من ذلك الجِلْد والنسيج تحته، إذ تقيحت الدمامل قبل أن تتفسَّخ وتكشف عمَّا تحتها من نسيج بشري حَيٍّ وأعزل، وكتل من الأعصاب التي ستستقبل الآن أقسى ألوان الألم، دون حماية، لا شكَّ أنها رائحة مروِّعة، تلك التي تفوح من هذا المكان، ولعلَّها في نعيمِ اليوم بسبب عدم قدرتها على إدراك الروائح .. تميِّز بقعاً حمراء كثيفة في المواضع القريبة من الرأس، في دلالة على نزفٍ بطيء ومستمرٍّ، على النسق نفسه الذي أخذت فيه الأجساد تتعفَّن، تتذكَّر أنها رأت سابقاً أسماكاً متفسِّخة ومتعفِّنة عند بسطة السمك في السوق، تفهم أن الأسماك تتعفَّن خارج مائها المالح، لكنْ، ما الذي يجعل هذه الأجساد تتعفَّن وهي في مكانها الحيوي الذي لم تخرج منه؟

عندما وصلت إلى أسفل كان القمر بدراً شتوياً، وهذا منَح المشهد بُعداً أشدَّ صفاءً وترويعاً في الوقت نفسه، حيث اصطفَّت الرؤوس في تساويها المُربِك بين الحياة والموت، وهناك الأجساد المعطوبة، دون حواجز تُذكَر بين جسدٍ لذَكَر أو أُنثى، ولا مكان يخصُّ الرجال وآخر للنساء، أو قيود تفرضها عوراتٌ محرَّمة أو طبقات اجتماعية، كانت أوَّل دفعة من الآيبين تختار لها مكاناً دون شرط الجنس، قبل أنْ تَحفِر لها قبورها النصفية بأيديها العارية التي بدأ تقيُّحها، حَفرٌ مُنهِك وبطيء، قد يمتدُّ أيَّاماً، وهذا استلزم لاحقاً بعد تكاثُرهم أن يُحضِر كلُّ مصاب

معه ما استطاع من أدوات حَفْر بدائية، ثمَّ يتجرَّد من ملابسه المشبَعة بالرائحة العَفِنَة وآثار الدمامل الدامية التي استبدَّت بالجسد دون أن يكترث أيٌّ من أصحاب الرؤوس المتبقِّية بالنظر إليه، فكلٌّ مُنصرِف إلى بلواه الخاصَّة وألمه الشديد، ليدلف "المجدور" إلى حُفرته، متساوياً مع الأخريات والآخرين في اضمحلال الجسد وانعدام الشهوات.

سمعت ابن عمِّها "مظفَّر" يَئِنُّ، استطاعت أن تميِّز صوته وهو في أسوأ حالات ضعفه، صوت ارتبط بطفولتها وشبابها وبشراكة تمييز التوابل بينهما، بين البحر واليابسة، تتذكَّر "مظفَّر" القوي، سيِّد سفن التوابل الذي طالما حسدتْهُ على قدرته على جَوب البلاد المحرَّمة عليها؛ لأنها لن تستطيع أن تعبر اليابسة مع الرجال في البحر، كان امتيازها محدوداً بحيِّز المكان، على حين كان العالم كلّه متاحاً لمظفَّر. أضحت السفن اليوم جثثاً معطَّلة على الساحل، والسوق الذائع الصيت بمثابة المَقْبَرَة الهامدة، دمَّر الوباء كلَّ شيء حتَّى الحركة الدائبة في سوقٍ كانت حركته توحي بأنه مستمرٌّ في حيويته تلك إلى الأبد، وبأنه لا شيء يستطيع إيقاف التجارة والمقايضة فيه إلى يوم البعث العظيم، اقتربت "شَمَّا" من مظفَّر بحذر، كان أنينه هذيان الحُمَّى، عيونه منتفخة والنتوءات تنزُّ عن خدِّه بدم مُتقيِّح، انتفخ أنفه الذي كان حادَّاً، أضحى يشبه كثيراً أنفها الأفطس الذي غاب، ودَّت لو تسأله ألَا يزال يستطيع أن يميِّز الروائح؟ لكنها أحجمت عن الأمر لمَّا تبيَّنت لهفته للماء، أدنت قربة الماء من شفتَيْه المتآكلتَيْن، كشفت عن صفٍّ من الأسنان المتخلخلة، كانت تسقي مَسخاً، أدركت ذلك، لكنها لم تَخَف، بعكس أوَّل مرَّة رآها فيها مظفَّر بعد أن

جُدع أنفها، تتذكَّر أنّ عينَيْه اتَّسعتا في رعب لمرآها بعد أن عولجت وبقي الفراغ محلّ الأنف كاشفاً نتوءاً لحمياً يابساً وفتحتَيْن عشوائيَّتَيْن، أشاح بوجهه في تقزُّز، ظلَّ يتحاشاها طويلاً وهو يزور والدها أو يَدلِف إلى مجلس آل تجَّار التوابل، وكأنه لم يعرفها يوماً، أو كأن الدم الذي كان يجمع بينهما جفَّ أو تبدَّد، لكنه ينظر إليها الآن، وتنظر هي إليه، كمسخٍ يواجهُ آخر ويألفه.

أصاب العمى معظم أصحاب الرؤوس الأُخرى، وهذه مضاعفة ماكرة أخرى من مضاعفات الجُدَرِيّ، تفكِّر "شَمَّا" أن في الأمر رحمةً لهم، فكيف يتحمَّلون مُشاهدة تساقُط اللحم عن أجسادهم عند اقترابهم من النهاية، راحت تسقيهم رشفات حتَّى وصلت إلى الرأس المائل الأوَّل، كانت الآن في منطقة التقاطع، صفَّان أُفقيان من الرؤوس الحَيَّة، مقابل أربعة صفوف أُفقية أخرى من الرؤوس المائلة الخامدة، التي راحت تتفسَّخ، ويجرف البحر مع امتداده كُتلاً من اللحم البشري منها، لتطفوَ عليه أيَّاماً، قبل أن يُذيبَها الملح أو ترسب عميقاً، فتلتهمها كائنات البحر.

أتتركهم هكذا؟

تذكَّرت "عبُّود بو راسين"، كيف تغفل رأسه الضخم؟ لكن اللحم المتقيِّح والمنتفخ المتعفِّن والمزرقّ ضاعف من أحجام الرؤوس جميعها، لقد أضحى "عبُّود" طبيعياً أخيراً بينهم، حاولت أن تتذكَّر علامة أخرى فيه، لا شيء سوى الرأس الكبير، تأمَّلت أوَّل رأس في الصفوف الأربعة، كان أقدمهم وأشدّهم تفسُّخاً، ولأنه المائل الأوَّل،

فلا بدَّ أن يكون هو، يأسها الحَيّ يقبع هناك في رأس "عبُّود" الميت.

أتتركه هكذا؟

اقتربت، جلست بمحاذاة الرأس أو ما تبقَّى منه، قرَّبت القربة لعلَّ الماء العذب يُصلح ما أفسده الملح، لعلَّ معجزة تحدُث فيستيقظ، قرَّبت القربة أكثر، فسقطت قطعة لحم متعفِّنة، هي آخر ما تبقَّى من شفتَيْه، وبقيت أسنانه الصفراء المتخلخلة، حاولت أن تتذكَّر ابتسامة "عبُّود"، هل كانت أسنانه بهذه الصُّفْرة الفاقعة دائماً؟

وأخفقت في التذكُّر ..

كان رمل الشاطئ رطباً ليلَتها، لعلَّه مَدٌّ قريب انحسر، وفي لحظة لم تفهمها وجدت جسدها منقاداً إلى ذلك الفعل دون إرادة، كأن أحداً غيرها هو الآن مَنْ يوجِّهه، اقتربت من الرمل الرطب الأقرب إلى الطيني، حملت شيئاً منه، وراحت تحاول أن تعالج شفة "عبُّود" بحثوة أخرى من هذا الرمل الرطب، الإنسان طينٌ في النهاية، أليس كذلك؟ فكرة طافت ببالها وهي تستذكر ما علمها إيَّاه والدها لمَّا كان يُدرِّسها القراءة والكتابة، وجدت نفسها بعد ذلك تهيل الطين على رأسه كاملاً، لا تدفنه، بل تعيد تشكيله من جديد، لقد أرادت في لحظة مجنونة توازت مع جنون دخولها العالم السفلي في هذه الليلة أن تعيد كرامة هذا الميّت، برأس بديل، من الطين .. وهكذا بدأ الأمر .. راحت تنحت بدءاً من رأس عبُّود الجديد المنحوت بشكل اعتباطي رأساً بعد آخر، وتنتظر الشمس لتجفِّف عملها، كوَّنت صوراً عظيمة في النهار، رؤوس طينية، سوَّت من ميلانها وعدَّلت ما فقَدتْهُ،

تأمَّلَتْها بفخر وهي تحاول مواصلة إعانة الرؤوس الحَيَّة برشفة ماء عذب حتَّى نفد، تحوَّلت بعدها إلى تقديم رشفات من الماء المالح متبوعة بأنين ملسوع، يزيد الملح آلام التقيُّحات، لكن العطش مرير، ولو كان عطشاً يُروَى بعطش آخر مالح، وبلسعات، لعلَّها محاولات التشبُّث بالحياة على رغم كلِّ شيء .. ثمَّ يأتي الغروب، ومعه مَدُّ البحر، ليكشف عورات الرؤوس الميتة الممسوخة، ويحمل الطين واللحم المتعفِّن، فتعود هي إلى ما بدأتْهُ، يومياً، لقد ظنَّت أنها مَحميَّة من المرض لأجل هذه الغاية.

لم تعلم وسط انهماكها أكان أحدهم يبحث عنها هناك في ذلك العالم العلوي، حيث الأصِحَّاء؟ هي تعلم جيِّداً أنه لن يجرؤَ أحد منهم على أن يغامر باحثاً عنها هنا، لكنّ مَنْ كان يأتي مصاباً إلى منطقة العزل المروِّعة هذه كان يجدها، حارسةً الرؤوس التي تعينها على المضيِّ بسلام .. وكان صاحب كلِّ رأس جديد يعينها بطريقته، ويأتي بطعام يعينه على إمضاء أيَّامه الأخيرة، وهي تستهلكه مناصفة بينها وبين مَن تبقَّى من الرؤوس.

لم تعلم كم مضى من الوقت عليها وهي تُزاول هذا الأمر الجديد، لكنها لاحظت تقلُّص أعداد الرؤوس الآتية، وزيادة عدد الرؤوس المائلة، وانخفاض ضجيج الأنين واللسعات، ثمَّ أتى رأسٌ أخير، أخبرها بأنّ هناك علاجاً أتى به الإنجليز أخيراً للحَيِّ مع الدكتور "هولمز"، وبأن أعداد المصابين آخذة في التقلُّص، وبأنه قد يكون آخر الملعونين بالمرض.

هل هذا يعني أنها فقدت قدرتها الخارقة من جديد؟ تساءلت

وهي تعين صاحب ذلك الرأس وتسوي ميله بعد أن انضمَّ إلى رؤوس الموتى، وترمِّمه بالطين مرَّة بعد أخرى بين النهار والليل، هو وأقرانه.

ثمَّ سمعتْهم يقتربون، بخطوات قوية، غير تلك التي أَلِفتها من ذوي الأجساد المتعبة بالمرض، وعرفت أن النهاية حانت، سمعَت عبارات بعيدة تأتي عن ضرورة إكرام الأموات بدفنهم، وأنه لم يعد هناك ما يعدي وما يخيف بعد اللَّقَاح، وأن الرائحة المروِّعة يجب أن تضمحلَّ مع ذاكرة الناس عن المرض، ميَّزت صوتاً واضحاً بينهم؛ صوت شقيقها "عزيز" .. شعرت بغضبٍ عارم يتفجَّر داخلها، وبين عالمهم العلوي أمامها والبحر الممتدّ خلفها، اختارت "شَمَّا" البحر، ومضت نحوه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فاطمة بنت ثابت

سامرَّاء - العراق، 296 - 297 هـ / 909- 910 م

فلمَّا قُتل "أبو العباس عبد الله بن المعتزّ بن المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد العبَّاسي" المعروف بين الناس بابن المعتزّ الخليفة المرتضى بالله، سرَت في سامرَّاء رائحة عطونة فاقعة، وتعفَّر الهواء برطوبة غير مألوفة، جعلت أهلها جميعهم يختبرون اختناقاً مشابهاً لذلك الذي شهده الخليفة، الذي لم يدم على رأس حُكْمه سوى يوم وليلة .. قبل أن تأخذه قبضة مؤنس خادم المقتدر الخانقة، في المكان الذي كان المخبأ الأخير الخائب لصاحبه، من بغداد حاضرة الخلافة، إلى سامرَّاء مسقط الرأس وهوى النفس الأوَّل، ليعود بعدها المقتدر بالله، فيجلس على العرش، كما أنهم جميعاً، وقد استلزمهم الأمر وقتاً لإدراك ذلك، وقعوا تحت وطأة الكابوس نفسه، الذي ظلَّ يراود الأهالي كلّهم ليلة بعد أخرى، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم وسيِّداتهم، أسياداً وعبيداً، وكلٌّ منهم يرى أنه يصارع غرقاً وشيكاً في ماء"دِجْلَة"، غرقٌ لا ينجو أحدٌ منه أبداً.

كانت فاطمة بنت ثابت تشاركهم الكوابيس والاختناق، وتفتقد معنى الرائحة، هي التي فقدت حاسَّة الشمِّ مِن جرَّاء صفعة قوية من شقيقها الأكبر، يوم قبَض عليها مُتلبِّسة، تقرأ رسالة من نجوان العبد، لم يتنبَّه أحد لأثر تلك الصفعة فيها، فجميعهم انشغلوا أو تشاغلوا بالأثر الأكبر، بعد أن سعى الشقيق إلى أن يُباع العبد على تاجر من

جزيرة العرب. أدمنت فاطمة التلصُّص قبل ذلك، وكانت تتحيَّن الفرص مراقِبةً أن يغيب أهل الدار كلٌّ في شأنه قبل أن تنصرف إلى مَكمَن نجوان، لتتسلَّم منه رسالة أو تُسلِّمه أخرى منها، عادةُ تلصُّص لم تفارقها حتَّى بعد أن غاب مُسامِرُها ومعه حاسَّة شمِّها، لقد راحت تظنُّ أنها بفقدانها للحُبِّ تفقد الرائحة، وأن نجوان لم يكن مجرَّد شخص بقَدْر ما كان محيطاً بتفاصيلها كلّها والشؤون منذ أن أدرك كلٌّ منهما فارق الجسد والمعنى بين ذَكَرٍ وأُنثى، واللذَّة في تلك التفاصيل المختلفة بينهما، رائحته التي التصقت بجسدها تماماً كما التصقت رائحتها بجسده، كأنهما تركا دمغةً أثيرية أحدهما على الآخر، حتَّى القصاصات الآتية والذاهبة بينهما، كانت مُشبَعة برائحته .. رائحة دخانية سميكة، كأنها لخشبٍ يحترق باستمرار، وأخرى هي أقرب إلى مسكٍ عَطِن؟ وهل هناك مِسكٌ عَطِن؟ هي لا تعلم، لكنها تربط أمر العطونة بتلك الندبات التي كانت في مواضع متفرِّقة على جسده، ندبات غريبة، يخيَّل لِمَنْ يراها من البعيد أنها لا تزال متقيِّحة ينزُّ منها دمٌ متخثِّر، إلَّا أن القرب يؤكِّد اندمالها، سألتْهُ عنها مراراً، وتجنَّب هو الإجابة، هي لا تعرف أيَّ شيءٍ عن الذي مرَّ به قبل الإتيان به إليهم، لكنها تعرف جيِّداً تفصيل حضوره الآتيّ جميعه، تقاطيع جسده، الابتسامة البيضاء الناصعة التي تناقض سواد بشرته العميق، أنفه الرفيع المستدقّ خلافاً لأقرانه، وصوته الرخيم، وبراعته في الحفظ حتَّى كأن ذاكرة ملايين الأشخاص منصهرة في شخصه الواحد، ذاكرة متَّسعة سخَّرها لحفظ الشِّعْر بدلاً من تكديس الأحقاد كما قال لها مرَّة.

لكلِّ واحدٍ منَّا ذاكرة متَّسعة، مصمَّمة تماماً لتذكُّر كلِّ ضربة سوط أو وَقْع إهانة، ذاكرة عميقة كأنها لبئر، تجعل أرواحنا تُثقَل بمرارة طويلة،

ليس لنا أن نعالجها ما دمنا أحياء، لأننا لا نملك من أمرنا شيئاً، وما دمنا لا نملك من أمرنا شيئاً، فإنني قرَّرتُ أن أملك ما بذاكرتي، لن أُخزِّن فيها ما يغذِّي ثأراً لن يكون يوماً، سأحرس روحي من المرارة بالشِّعْر، لعليِّ أنجو، لعلَّنا ننجو معاً، يا فاطمة، فأنتِ أيضاً على رغم حُرِّيَّتكِ المعترَف بها لا تملكين من أمركِ شيئاً.

وها هي ذي بعده، لا تزال تنسلُّ كلَّ ليلة خفيفة من الدار، لأن هذا هو الأمر الوحيد الذي بقي لها أن تمتلكه من شأنها، تجوب الأرجاء لتتلصَّص على الحكايات والأسرار، وتتضخَّم فيها معرفة بأن لا أحد من أولئك الذين أدانوا ما بين نجوان وبينها هو في حقيقته يمثِّل ما نادى به من عدم اختلاط الدم بالدم، والسيِّدة بالعبد، والسموّ بالحضيض .. لقد كشفت الليالي المعتمة أحطَّ ما فيهم، نفاقهم، والتشوُّه العظيم في أرواحهم، وضبابية حيواتهم، وفكَّرت بأن لون جِلْد نجوان الأسود، الذي كانوا يرونه أشدَّ الأشياء وضاعة، هو في حقيقة الأمر أكثر ما قد يدلُّ على السموِّ، في وضوحه وصفائه .. لقد عرف نجوان نفسه من الداخل دون أن يتنكَّر لخارجه، كان متصالحاً مع ذاته بعكسهم، حُرّاً دائماً، كان الليل إذا أتى يكشف عبوديَّتهم المستترة، لقد فهمَت تماماً ما كان يعنيه نجوان وقتها بالحديث عن الحُرِّيَّة الزائفة، لن تتحقَّق الحُرِّيَّة لأيِّ أحد منهم يوماً، فجميعهم لهم أغلالهم، مدموغة على أجسادهم، الظاهر منها والمخفي، وكلُّهم يقيم سوادهم فيهم نهاراً حتَّى يفتح لهم الليل بَوَّابته، ليخرج منهم مندمجاً فيه، فلا يُبصره أحد، لأن له لونه الداكن نفسه.

فاطمة بنت ثابت هي الوحيدة من بين أهالي سامرَّاء التي أدركت

اللحظة تماماً، لحظة تشبُّع الهواء بالاختناق، وعيناها تواجهان عينَي ابن المعتزِّ الجاحظَتَيْن، واليد الضخمة لمؤنس خادم المقتدر بالله تقبض على رقبته، ويشدُّ القبضة ليسلِب روحه، كانت وراء باب دار المخبأ، الذي فرَّ إليه ابن المعتزِّ بعد أن ثار عليه الحرَّاس والناس في ثاني يومٍ مِن تنصيبه نفسه خليفة عليهم، فقد أرادوه شاعراً لا سلطاناً، بعكس كتلة النار التي أرادتْهُ سلطاناً لا شاعراً، ولم تعلم فاطمة أتلك لحظة حتمية أم مصادفة عابرة؟ لأنها شعرت بأن النظرة الأولى والأخيرة بينهما قد حملت ما هو أبعد من نزع أخير أو طلب نجدة، كانت ذاكرتها تمتزج بذاكرته، رأت الدم، دم مقتل جدِّه الخليفة المتوكِّل بعد أربعين يوماً من ولادته، ثمَّ الصراخ في القصر الذي لقي فيه والده الخليفة "المعتزّ" مهشَّماً، قطعت معه الصحراء في الذاكرة وهو في طريق الهرب إلى مكَّة، تقوده جدَّته "قبيحة"، وترقَّبه هناك إلى حين عودته إلى سامرَّاء من جديد، اختبرت معه توقد اكتشاف المعرفة لديه واحترافه الشِّعْر على أيدي مُعلِّميه، والانسياقات الأولى وراء اللذَّة، حيث التنهُّدات وحرارة الأجساد المتماسة، ورائحة العطر والخمر المتجانسَيْن، لكأنهما خرجا من المصدر ذاته في مجالس المريدين، توقَّفت طويلاً عند اللحظة التي خطَّ فيها ابن المعتزِّ قوله:

"لحظةُ القلبِ أسرعُ خطرةً من لحظةِ العينِ، وأبعدُ مجالاً، وهي الغائصةُ في أعماقِ أوديةِ الفكرِ، والمتأمِّلةُ لوجوهِ العواقبِ، والجامعةُ بين ما غابَ وحضرَ، والميزانُ الشاهدُ على ما نفعَ وضرَّ، والقلبُ كالمُمْلِي للكلامِ على اللسانِ إذا نطقَ، واليدُ إذا كتبتْ".

إنها كانت العبارات ذاتها التي اختارها نجوان لتكون متن رسالته

الأولى لها، مُذيَّلةً بأنه قرأها فيما تناقله الناس من خواطر ابن المعتزِّ، ثمَّ رأت ابن المعتزِّ يكتب الشِّعْر مرَّات، بين اليقظة والغيبة، غيبة الشِّعْر والشراب، ويقظة الفكرة المتَّقدة، شعرت بأنها تعرفه تمام المعرفة، كأنها رفيقة درب ممتدَّة له، وأرادت أن تمدَّ له يد العون، لولا أنّ خيط الذاكرة انقطع فجأة لتُخمَد تلك العين الجاحظة، التفت مؤنس الخادم نحو الموضع الذي كانت تتلصَّص منه، لكنها كانت قد توقَّعت حركته، فانسلَّت راكضة نحو الدار، وهي تشعر بأن الهواء يَثقُل حولها، ويتشبَّع برطوبة كثيفة غير مسبوقة.

رأت الجنازة الخجلة القليلة العدد بمَنْ تبقَّى من أنصار ابن المعتزِّ وأهله تخرج في اليوم التالي، وكان مُستقرّ الدفن الأخير في مساحة قريبة من بيت شقيقه حمزة بن المعتزِّ، والناس يغالبون ثقلهم الذي ضاعفتْهُ الرطوبة، ثمَّ تنبَّهت وسط تلصُّصها في الأيَّام التالية إلى أحاديث الكابوس الواحد الذي تفشَّى بين الناس كالعدوى، مع الرائحة العَفِنَة، قبل أن يُراوِدَها الكابوس نفسه.

قال الناس إنها لعنة ابن المعتزِّ حاقت بحاضرة الخلافة؛ بغداد ومعها سامرَّاء مسفك دمِه الأخير، وقيل إنه ثأر روح ابن المعتزِّ من المقتدر بالله، فللأخير جلسة العرش دون هدأة الهواء النقي الخفيف الحُرّ، لكنها علمت أن في الأمر ما هو أبعد من ذلك، وكان أن تحقَّق لها هذا العِلم يوم غرقت في دِجْلَة، غرقت دون أن يقتلها الغرق كالأهالي في كوابيسهم، وهناك لقيت ابن المعتزِّ نفسه في الأعماق يخطب وسط جمع من الجثث المتناثرة هاتفاً: "وهكذا أصبحَ على وجهِ الأرضِ خليفتان، فأيُّهما أحقُّ بالبقاءِ؟ وأيُّهما أحقُّ بالموت؟ ونهرُ

دِجْلَة لا يتوقَّفُ على رغمِ ما فيه مِن جثثٍ، كذلك الأرض، لا تتوقَّفُ بما فيها من مقابر، فيا أيُّها النجم البعيد كنْ شاهداً عليَّ، إن الأتراك الذين قتلوا أبي وقتلوا جدِّي، يقفون الآن خلفي، ليقتصُّوا بيعتي بسيوفهم"[1] ، ثمَّ التفت نحوها موجِّهاً الكلام إليها بعينها دون بقية الخلق طالباً منها أن تكسر دائرة الموت في عائلته، وقال إن جسده ليس لسامرَّاء، وعليها أن تَنبُشَ القبر وتُعيده إلى الحُرِّيَّة في نهر دِجْلَة، تماماً كما هي تراه الآن، مكانه النهر ومساره، إلى حيث سينتهي به المصبُّ في مكانٍ لا دم فيه ولا ثأر ولا نار .. قال إنها إن حقَّقتْ له ذلك، فسوف تكون مباركة إلى الأبد بشيء تناله وحدها، دون الناس، يميِّزها منهم، ويرفعها مقاماً بينهم.

لم تعرف أهي الوحيدة التي بانت لها الرؤيا أم لا؟ لكن الناس واصلوا استياءهم من كوابيسهم دون إضافات شارِحة منهم، فراحت تخطِّط لليلة نَبْش قبر ابن المعتزِّ، وتفكِّر في الطريقة التي قد تتمكَّن فيها بجسدها الضئيل من سحب جثَّته إلى الماء، كانت تراقب العتَّالة في السوق وهم يسحبون أحياناً ما ثقل وزنه من البضائع بالخِرَق الخشنة، وحصلت على واحدة مختلَسة من دكَّان أحد أبناء عمومتها، وتحيَّنت ليلة ينامُ فيها الناس وهم في طريقهم إلى الغوص في ذلك الكابوس الجماعي، وتوجَّهت بعدها نحو البقعة التي دُفن فيها ابن المعتزِّ دون شاهد، لكنها عرفت الموضع جيِّداً، إذ إنها كلَّما اقتربت منه تضاعف ثقل الهواء، راحت تَحفِر بالمعول الذي كان مختلَساً أيضاً بخفَّة وسرعة وقوَّة فاجأتها، وكأن أحداً يعينها، حتَّى بدأت تتبيَّن الجسد وهو في استعداده للتفسُّخ، عرفت أنها لو ميَّزت الرائحة،

لسقطت مَغشيّاً عليها أمام العطونة، راعها لمَّا أزالت التربة عن وجهه أن عينَيْه لا تزالان جاحظَتَيْن، دون أن تُغلَقَا، على رغم انطفاء مَحْجَرَيْهما، حاولت أن تُغلقهما، لكنهما كانتا صلبَتَيْن صارمَتَيْن، تخلَّت عن ذلك وهي تخاف أن يسرقها الوقت ويجدها أحدهم، سحبت الجسد بصعوبة شديدة إلى حيث موضع الخرقة، ومن هناك راحت تسحبه بخفرٍ إلى النهر، تحاشت أن تنظر إليه عينَيْه المحدِّقَتَيْن في الهواء، في نظرة كأنها إدانة أبدية للسلب القسري للروح.

وصلت فاطمة بنت ثابت إلى النهر أخيراً، شعرت بأن الهواء القريب من النهر أمسى أخفَّ، وبحذر شديد أخذت تدفع الجثَّة نحو الماء، رفعت الخرقة رويداً رويداً، وتدحرج الجسد الميت ببطء حتَّى سقط في دِجْلَة، ولمَّا حدث ذلك شعرت بأن رائحة قوية داهمتْها، لقد استعادت حاسَّة شمِّها بَغْتَةً، كانت الرائحة العطنة النفَّاذة للجسد المتفسِّخ لا تزال في الأجواء، رجعت إلى الخلف ساقطة كأن الرائحة دَفَعتْها، شعرت بأن هذه الرائحة المريعة لا تشبه أيَّ رائحة عرَفتْها يوم كانت لها حاسَّة الشمِّ الاعتيادية، ركضت مسرعة إلى دارها وهي تظنُّ أنها ارتكبت خطأً، لم تتنبَّه وسط الخوف واللهاث إلى أن الهواء المحيط في المدينة قد تحرَّر من الرطوبة الغريبة التي كانت تُثقله منذ مقتل ابن المعتزِّ.

أدرك الناس في اليوم التالي أن القبر نُبِشَ، وأن الجثَّة اختفت، فعزوا الأمر إلى نبأ لا يُعرَف مصدره يقول إن المقتدر بالله أمَر بأن يُنبَش القبر وتُحرَق الجثَّة، لكي تذوب اللعنة التي استبدَّت بالمُدُن، وبعد اختفاء الجثَّة اختفت الرائحة العطنة أيضاً، واختفت معها رطوبة

الهواء الجماعي الواحد الذي طاردهم، أمَّا فاطمة، فقد بقيت تحاول التأقلم شيئاً فشيئاً مع تلك القوَّة الغريبة، حاسة الشمِّ الخارقة التي اكتسبَتْها بعد أن نفَّذت طلب ابن المعتزِّ في الرؤيا، قضت عدَّة أيَّام لتُدرك أن هذه الحاسَّة هي البركة التي وعدها بها ابن المعتزِّ، وتسرَّبت في الهواء رائحة نجوان إليها، شعرت بأن خيطاً ثخيناً من الرائحة يمتدُّ من جسده التائه في جزيرة العرب إلى حيث موضعها في سامرَّاء، رائحة خاصَّة تعرفها منذ أن احتكَّ جسداهما قبل سنوات، ثمَّ راحت بعدها تعي قدرتها على أن تميِّز بصمة الرائحة في كلِّ جسد حولها، وتتلقَّف عبير الأشياء قبل أن تصل، وأن تدرك مُكوِّن كلِّ ما يحيط بها، من خلال الرائحة، من توابل وعطور، بل وحتَّى ما يعتمل في دواخل البشر من مشاعر.

عرفت بأنها لن تُهزَم ومعها هذه البركة، فقد حسمت حاسَّة الشمِّ النفَّاذة الجديدة أمرَها، وقرَّرتْ أنْ لا مكان لها هنا في سامرَّاء، وأنها ستمضي إلى جزيرة العرب، بحثاً عن نجوان. بحث عنها أهلها طويلاً بعدما اختفَت دون جدوى، فلا عارٌ سيغُسَل ولا عودة ممكنة، وتناقلت الأخبار من جزيرة العرب حكاية السيِّدة الحُرّة من سامرَّاء، التي تزوَّجها عبد أعتقه سيِّده لقدرته البارعة على حفظ الشِّعْر، ثمَّ ذاع نبأ سلالتهما التي كان رجالها كلّهم يولدون بقدرة بارعةٍ على الشمِّ، أكسبتْهم رفعةً بين الناس، وامتهنوا جيلاً بعد جيل تجارةَ التوابل.

الخطبة نصٌّ مُتخيَّل على لسان الخليفة ابن المعتزِّ من كتاب "شخصيات حَيَّة من الأغاني" لمحمَّد المنسي قنديل.

ينصُّ التدوين التاريخي على أن "عبد الله بن المعتزّ" قُتِل في بغداد، لكن الموضع نُقِل لمقتضيات المخيِّلة السردية إلى مسقط رأسه: "سامرَّاء".

الولايات المتَّحدة الأمريكية / ولاية آيوا

نوفمبر عام 2021م

امتنان ومحبَّة

أودُّ أن أتوجَّه بكامل الشكر لكلِّ مَنْ عبروا رحلة هذا العمل معي، قراءةً وتحريراً وصبراً وملاحظات، وأخصُّ بالذِّكْر منهم الشاعر علي الشعالي والشاعر والمحرِّر أحمد العلي والكاتب عبد الواحد الأنصاري والكاتب أحمد المظلوم السويدي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

يمكن أن يُسمِّيَها القارئ: امرأة الرائحة. حتَّى كأنما الرائحة تقرِّر مصيرها، ومصائر مَنْ يمكنها التحكُّم بهم. إنها سليلة عائلة تعمل بتجارة التوابل، فقد لفتت نظر والدها أوَّلاً، ثمَّ جميع مَنْ عرفوها بأن لديها قدرة على تمييز مُكوِّنات التوابل من خلال الرائحة، "وضعت شيئاً من التوابل على طرف لسانها، ونطقت بالمُكوِّنات: فلفل، قرفة، قَرَنْفُل، وهيل!" إنها تشمُّ أكثر ممَّا ينبغي، وتُقوِّم الأشخاص استناداً إلى روائحهم. حين التقت بـ "صبي المقبرة" لم تشعر إزاءه إلَّا بالاستفزاز والغضب، مع هذا كانت تبحث عنه ليُحدِّثها هو عن رأسه الكبير، وتشمئزُّ هي منه وتغضب.

عندما كبرت قليلاً منعها ذووها من اللعب جوار "سور المقبرة": مكانها الأثير، لأنها "كبرت على اللعب"، ثم غادروا الحَيَّ، فانقطعت عن "صبي المقبرة". لكن هذا لم ينسَ طفولته معها، وفجأة تقدَّم ليطلبها زوجة له. تقول له إن لا تستطيع أن تحبَّه ولا أن تتزوَّجه، لأنه منعدم الرائحة، بل إن لديه رائحة ما، لكنها ليست "حامضية" مثل روائح الرجال ... واستناداً إلى ذلك تقرِّر مصيره ومصيرها.

خلال ذلك يتعرَّف القارئ أيضاً على التغيُّرات والتطوُّرات التي طرأت على دبي والمجتمع الإماراتي، بحبكة روائية، تجعل القارئ لا يستطيع وضع الرواية جانباً إلَّا وقد أكمل قراءتها.

الناشر

ISBN 979-12-80738-72-1
9 791280 738721
المتوسط